اعلام العرب
(١٣٣)

ابن سينا
القرن العشرين

تأليف: نسيم مجلى

الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٨٨

٩٣٣

ابن سينا

القرن العشرين

تأليف: نسيم مجلي

الاخراج الفني : جرجس ممتاز

كلمـــة لابد منهـــا

ابن سينا القرن العشرين

« ابن سـينا القرن العشرين » هو عنوان مقـال ممتاز للدكتورة نعمـات أحمد فؤاد بصحيفة الأهرام بتاريخ ٢ سبتمبر سـنة ١٩٧٧ عن محمد كامل حسين .

وقد اخترته عنوانا لهذه الدراسة ، لأنه أكثر الاسـماء دلالة على فكر صاحبه ولأن محمد كامل حسين هو الذى اختار « ابن سينا » ليكون اسما مستعارا يوقع به مقالاته الأولى فى الثلاثينات . وكذلك لوجود كثير من الشبه بين كامل حسين وبين الفيلسوف المسـلم الكبير الذى عاش فى القرن الحـادى عشر الميلادى (٩٨٠ — ١٠٣٧) .

كان ابن سينا فيلسوفا وعالمـا وطبيبا ، لعب دورا كبيرا فى نشر تراث الفلسفة والعلوم الاغريقية بين العرب ومن خلالهم فى أوربا وقد ترك أثرا كبيرا بين الأوربيين فنشروا أكثر مؤلفاتـه باللغة العربية ، وترجموا أكثرها الى لغاتهم .

وقد جاهد ابن سـينا فى سبيل تعزيز التفكير العقـلانى وتطوير العلوم التطبيقية والرياضية وحارب الخرافات فى ميدان الفكر والعقيدة .

وقد جمع ابن سينا فى فلسفته بين تيارى المـادية والمثالية الأرسطية . فقد أقر بخلود المـادة باعتبارها أصل التنوع الكبير بين الأشياء الفردية ، كما أثبت بالبرهـان العقلى أن للكون الها كاملا هو علة كل ما عداه من موجودات علوية وسفلية .

وهو ما أثبته كامل حسين على أساس نظرية التطور ولعل فى هذا كله تكمن دلالة العنوان .

نسـيم مجـلى

تقـــديم

بقـلم الدكتور حســين فوزى

هذا كتاب يكشف لى عن سر من أسرار البلاغة فى معنى الاستشعار بعبقرية شخص ما من أول أمره ، أو بعد قليل من لقائه ، وقيام صـداقة بينه وبين كاتب هـذه السطور كتـاب الأستاذ نسيم مجلى تحليل بليغ نير لعبقرية محمد كامل حسين ؛ يتناول أهم مؤلفاته بالفحص والشرح والابانة عما فيها من فكر عميـق ، مصـبوغ فى أسـلوب هو الجزالة بعينهـا . فلا هو استعراض لغوى ، ولا تأنق نحوى . وانما ذلكم البناء الشامخ يقوم على منطق علمى .

استعدت فى هذا الكتاب من الأعوام الستين التى انقضت على أول لقائى بكامل حسين . وما صـدر له فيها من مقالات وكتب حتى حملت نعشه فى ٧ مارس ١٩٧٧ .

وموضوع عجبى اليوم أن اللقـاء البكر الأول البكالوريا سنة ١٩١٧ كان منطلق صـداقة ستين عاما . وان ما يستعرضه نسيم مجلى فى كتابه الصـادق الأمين ؛ عرفتـه فى وقته وكان تحقيقا لمـا توسمته فى محمد كامل حسين وحتى قبل أن ينشر أى كتـاب فقد كان حديثه وكانت رسائله فى خـلال العطـلة

الدراسية ، وكان سلوكه فى ثورة ١٩١٩ ، وما بعدها حيال أى حدث اجتماعى أو سياسى أو علمى ، كل ذلك أنـار لى مستقبل هذا الصديق الأعظم ، وكأنى أرى المستقبل رؤى العين .

ومع هذا ، أشهد يوم وجدت كتاب « قرية ظالمـة » ينتظر عودتى من الخـارج ، عند المرحـومة والدتى ، وانصرفت الى مطالعته دون توقف ، انه بهرنى وهز كيانى . وأمر هـذا عجيب، فكل ما خبرته فى كامل حسين وقرأت له كان مثار اعجـابى ، على أساس أن نجـاح المفكر والكاتب والخطيب هو واحـد من مسلماتى . فكامل حسين عندى يمثل الكمال انسانا فى ايمانه العميق ، وسلوكه السامى ، ومثله العليا ، ولم يكن هـذا كلاما ولا تخرصا بل كانت مصابيح هـدى لكل من عرف صـديقى وعرك حياتـه .

لقد فاق انبهارى بكتاب قرية ظالمـة كل ما سبق ولحق بهذا الكتاب . وتفسيرى له يقوم على أكثر من قاعدة وسبب . وجماعها فى أن يبلغ ما بلغ فى تصويره ، وفى لغته ، وفى بيانه وبنائه وأسـلوبه . وفى فلسفته الفردية والاجتماعيـة ، وفى اتصـاله بأسمى قضايا البشرية عندما يتعلق الأمر بحيـاة أنبياء الهـدى ورسل الحب والسلام وفى أن يكون صورة تنبض حياة لصديقى محمد كامل حسين وخلاصة مصفاه لكل ما شهدته فيه وتوقعته من عبقريته .

واذ أقدم للقراء كتاب الأخ نسيم مجلى فلأنى واثق من أن القارىء واجد فيه تحليلا صادقا أمينا لشخصية محمد كامل حسين كاتبـا ومفـكرا ، تبرز للقارىء بمجرد الاطـلاع على رؤس موضـوعاته •

وحدة التطور التاريخى ـ منهج جديد لوحدة المعرفة ـ الوادى المقدس•••وحديث الى النفس وتختم هذه الفصول بأزمة الضمير الانسانى ، حيال ما وقع من أحداث ، وجرى من أحاديث فى يوم جمعة حزينة بآورشليم ، القرية الظالمـة •

فليطمئن القارىء وهو يتابع هـذه الفصول انه يقرأ لكاتب نقاده ، شفاف النفس ، متفتح الفكر ، يجيد الغوص على ما فى بحر العلم والفكر والفن من درر •

لقد كسبت بمطالعة هـذا الكتاب صديقـا يحيى ذكرى صديقى الأعز بأسلوب جدير بمادته وموضوعه •

وليصدق القارىء وعدى له لأنه سوف يكسب مثلى صديقا هو نسيم مجلى ، الذى عرض بأبرع الوسـائل وأبلغها فـكر محمد كامل حسين والاشعاع الذى ينبعث من أدبه وفنه •
القاهرة فى ٢٦ يولية ١٩٧٨ •

د• حسين فـوزى

مقدمــة

حياتـه واعمـاله :

يعد الدكتور محمد كامل حسين نموذجا فريدا فى حياتنـا الثقافية المعـاصرة اذ جمع بين النبوغ العلمى والنبوغ الأدبى وحاز التقدير فى الميدانين فحصـل على جائزة الدولة التقديرية مرتين ، مرة فى العلوم ومرة فى الآداب • وبرحيله فى السابع من مارس ١٩٧٧ تفقد الحياة الثقافية فى مصر والعالم العربى عالمـا وأديبا كبيرا تخطت شهرته حدود مصر والعالم العربى ، اذ ترجمت قصـته « قرية ظالمـة » الى الانجليزية والفرنسية وغيرهـا من اللغات الأوربية وأثارت اهتماما كبيرا بين بعض رجـال الفكر الغربى المسيحى حتى أن بعضهم يعتبرها محـاولة لاكتشـاف أرض مشتركة للحوار بين المسيحيين والمسلمين •

وكامل حسين يذكرنا بمفكرى عصر التنوير فى أوربا الذين يجمعون بين الثقافة العلمية والثقافة الأدبية ، فهو أستاذ فى علم جراحة العظام وصل فى تخصصه الى أعلى الدرجات ومعلم تدرج فى مجال التدريس بالجامعة حتى وصل الى منصب رئيس قسم جراحة العظام ومدير لجامعة عين شمس ١٩٥٠ •

ولم تمنعه دراسـة الطب أو ممارسة مهنته كطبيب وأستاذ

جامعى من مواصلة الدراسة والبحث فى الأدب والتاريخ والفلسفة والدين ، وظل يساهم فى هـذه المجالات بكتبه وأبحاثه حتى انتخب عضوا بمجمع اللغة العربية سنة ١٩٥٢ .

ومن أعمـاله :

١ ــ قريـة ظالمـة التى فـازت بجـائزة الدولـة سنة ١٩٥٧ .

٢ ــ التفسير البيولوجى للتاريخ .

٣ ــ وحـدة المعرفـة .

٤ ــ الشعر العربى والذوق المعاصر .

٥ ــ الوادى المقدس .

٦ ــ الذكر الحكيم .

بالاضافة الى عدد من الأبحاث الأدبية والعلمية التى ساهم بها فى دورات المجمع اللغوى مثل الفصول الآتية وهى منشورة فى كتاب متنوعات جزء أول وثانى :

* أدب النقائض وحقيقة أمر الفرزدق .
* القواعد العامة لوضع المصطلحات العلمية .
* اللغـة والعـلوم .

* معنى الظلم فى القرآن .
* تاريخ الكيمياء القديمة .
* الحرمان : أثره فى الأفراد والجماعات .
* القــرآن .
* التفسير العلمى للقرآن بدعة حمقاء .
* الترجمة العربيةلبردية أودين سميث .
* قصـــة آدم .
* محنتـــان متشابهتان .
* أصــول علوم اللغــة .
* أسلوب أبى العلاء المعرى ودلالته .

بالاضافة الى بعض اقتراحاته الهامة بتيسير اللغــة العربية وحل مشــاكلها .

وهو كطبيب وأستاذ جامعى نجده مهتما فى كل ما يكتب ، بالعلاج ووضع الحلول . ويبدو أن انشغاله كطبيب بعلاج كسور الجســم وجروحــه قد كشفت له عن بعض المناطق المظلمــة فى النفس البشرية ، ورأى فى لحظات الآلام الرهيب مواطن الداء الحقيقية ، فاهتم بأزمة الانسان ككل وراح يبحث لها عن العلاج

فى مجالات المعرفة المختلفة ، فدرس الفلسفة والتاريخ وحاول الوصول الى نظرية لتفسير التاريخ الانسانى . واهتم بدراسة الأديان السماوية الثلاثة وبالأخلاق اليهودية والمسيحية . كذلك اهتم بالتفسيرات العلمية والأخلاقية للقرآن ، ومن أهم بحوثه فى هذا الشأن « معنى الظلم فى القرآن » . ولفظ الظلم ومشتقاته يتردد فى القرآن أكثر من مائتين مرة . ولعله وجد فى معنى الظلم وأثاره الاجتماعية مصدر الداء بالنسبة للأفراد والجماعات .. وهذا ما يبدو واضحا فى قصة « قرية ظالمة » وفى قصتيه القصيرتين « الاسخريوطى » و « الراهبة والعجوز » .

رسم له أصدقاؤه ومعاصروه ، صورة قوية متعددة الجوانب . ولكنهم أجمعوا جميعا على تميز شخصيته وتفرده . وهذا ما سنجده فى أقوال الدكتور ابراهيم بيومى مدكور ، والدكتور حسين فوزى والأستاذ فتحى رضوان . وهم جميعا من كبار المفكرين والأدباء فى مصر وفى العالم العربى كله .

عالم يؤمن بالعقل والتجربة العلمية :

فى حفل استقباله عضوا بمجمع اللغة العربية وصفه الدكتور مدكور بأنه عالم يؤمن بالعقل وبالتجربة العلمية . وفى موضع آخر قال عنه : « وكامل حسين يريد العقل العلمى الذى يحلل

ويعلل لا العقل الاقطـاعى كما يسميه أحيانا ، أو عقل القرون الوسطى الذى يسلم ويستسلم فلا ينقد ولا يناقش ولا يخترع ولا يبتكر • وهو فى ربطه للعلم بالعقل يدرك فى وضــوح مدى الصلة بين الطب والفلسفة ، فهو فى نفسه فيلسوف بقدر ما هو عـالم » •

هــذه اللمحة السريعة الذكية تلخص دون شــك موطن الأصالة فى فكر كامل حسين كما سنرى فيما بعد • ولعل تفرد كامل حسين فى الناحية المنهجية يؤكدها الأستاذ محمود العالم بقــوله :

« والدكتور كامل حسين فى الحقيقة مفكر أكثر منه أديب ، يغلب الطـابع الفكرى الخلاق على كل ما يكتب ، لا تشذ عن هــذا روايته (١) فله منهج محدد فى التفكير يستلهمه من ثقافته العلمية ، وله مذهب واضح القسمات يستوعب جانبا كبيرا من أشكال التعبير والنشاط الانسانى ويعد كتابه الأخير « التحليل البيولوجى للتاريخ » تعبيرا متكاملا عنه •

وفى ثقافتنا العربية تيارات فكرية بعضها يبرز خلال المذاهب النقدية للأدب ، وبعضها الآخر يبرز فى الدراســات التاريخيــة

---

(١) قريــة ظالمــة •

والاجتماعية والاقتصادية ، الا أنها جميعا لم تتكامل فى مذاهب واضحة القسمات ، محددة القيم » •

والواقع أن كثيرين ممن نادوا بمذاهب أو مناهج فى ثقافتنا المعاصرة كان معظمهم ان لم يكونوا جميعا مترجمين لفكر أجنبى يحملون مناهج منقولة أو منحولة • وهذا ما نجا منه كامل حسين بما حققه فى بحوثه العديدة المختلفة والتى تبرز جدة منهجه ومذهبه •

ويرسم له الدكتور حسين فوزى صورة أدبية متعددة الجوانب والألوان (٢) :

« كان ألمع الشخصيات فى المجمع ، فشخصيته الجذابة شبت ونمت على المعرفة • وبدافع عقله اليقظ ، تابع الدراسة من باب الى آخر ، من الشعر والأدب الى الفلسفة والعلم ، وحقق فيها كلها امتيازا ملحوظا ، وصفه شاعر من معارفه بأنه نموذج مثالى ، وهبته الطبيعة كل عطائها •• انكب على الدرس بلا معاناة ، صاحب ذاكرة عجيبة ، وثقافة بارحة الجنبات ، متمكن من لغته ، وهو علم فيها ، متضلع فى غيرها • دماثة الخلق فى طبعه ، متفتح العقل لكل فلسفة ، وكل ديانة ، لا يرفض نظاما عقلانيا ، وهو المتصوف بقلبه وكيانه ، دون قبول للغيبيات

(٢) فى كلمة التأبين التى القاها بمقر المجمع العلمى المصرى فى ١٩٧٧/١٢/٧ •

الشعبية . عطوف على الفلسفة الاسكولائية ، وذلك غير معتاد في أنداده ، متبحر في الفكر العربي ، ومتنظر على الفكر العبراني، وكان يشهد لبعض أساتذته من اليهود أطيب شهادة . لا أثر لتعصب في تفكيره ، ولا في علاقاته . طالع الأناجيل ، وكتب العهد القديم ، وتدارس الديانات المقارنة ، جمع في وحدة معارفه المسيحية والموسوية ، وضم اليها الأفلاطونية القديمة ، والجديدة، مع أرسطو . وعلى الرغم من الاحترام الذي يقابله ، والتبجيل الذي يلقاه ، فقد احتفظ بتواضعه ، الا فيما يمس دقة تفكيره ، وصحة علمه ، أو ايمانه بقدرة العقل » .

هذه الصورة التي رسمها الدكتور حسين فوزي واستعار بعض خطوطها مما قاله الشاعر لوتسيانو يصف به صديقه جوفاني بيكوديللا ميراندولا وكان الخلاصة المصفاة لعصر النهضة ١٤٦٢ ــ ١٤٩٣ م . لأنه يؤمن ان محمد كامل حسين هو رجل نهضة أو « هيوماني » .

والواقع ان هذه أبرز خاصية في كامل حسين ينفرد بها في تاريخ الفكر المصري الحديث .

وسوف نقف عندها طويلا عند الحديث عن هذا الجانب .

وقد أشار الأستاذ فتحي رضوان الى هذا المعنى حين قال : انه « بين الكتاب والمفكرين ، والأدباء رجل فريد ، ليس فيمن حمل القلم في الخمسين سنة الماضية رجل يشبهه » .

هذه الشخصية الفذة التى بهرت هؤلاء المفكرين الكبار ، لابد ان تبهر أمثالى . وقد بهرت بها فعلا ، وأحببت فى صاحبها خصالا فكرية كثيرة ، فرحت أجمع كتبه وأقرأها وأفكر فيها مليا . واكتشفت غزارة علم ، وعمق بصيرة ، وصدق التعبير ، ووضوحه ؛ مما جعلنى أظن فى بعض الأحيان انه قد وصل الى حد اليقين الراسخ ، لكننى اكتشفت بعد حين أن هذا السطح الساكن الهادىء يكشف عن أعماق ثائرة متلاطمة . وكان دليلى فى فهمه بضع مقالات قليلة لم تشمل كل أعماله . بل ان أهم كتاب له وهو « وحدة المعرفة » لم يكتب عنه شيئا ذا بال سوى مقالين فى باب للهجوم أحدهما للأستاذ العقاد والثانى للدكتور زكى نجيب محمود . وهما لم يناقشا الكتاب أصلا وانما انصب كلامهما على وجه التشابه بين بعض ما قاله الدكتور كامل حسين وما قاله الفيلسوف الانجليزى المعاصر صمويل الكسندر . وقد أنكر الدكتور كامل حسين وجود هذا التشابه . وقد كرست فصلا مستقلا لمناقشة هذه المعركة الفكرية .

ولهذا الأمر مزاياه وعيوبه . فهو يقدم للباحث فرصة طيبة لتناول موضوع جديد غير مطروق . ومن عيوبه أنه يضع الباحث أمام مسئولية كبيرة ومشقة آكيدة خصوصا اذا كان الموضوع الذى يتصدى له يتعلق بقضايا فكرية بمثل هذه الخطورة .

ولكى يسهل علينا تفهم مثل هذه الشخصية ، لابد لنا من أن نبحث عن نشأة صاحبها وتتعرف على العوامل الاجتماعية والثقافية التى ساهمت فى تكوينه العقلى والروحى .

حياته وعصره :

وهذا ما يحدثنا عنه الأستاذ فتحى رضوان فى مقال عنوانه « وادى محمد كامل حسين المقدس » مجلة الثقافة عدد ٤٣ (أبريل سنة ١٩٧٧) .

ولد سنة ١٩٠١[٣] ، فكأنه ولد مع القرن العشرين ونما بنموه ، فلما بلغ أشده ، كان القرن يواجه مشكلاته التى لم يواجهها قرن سواه ، اذ لم ينقض على مولده الا عقد واحد ، أى عشر سنوات حتى كانت نذر الحرب العالمية الأولى تتوالى ثم اكفهر الجو الدولى ، ثم وقعت المجزرة البشرية التى لم يسبق لها مثيل ، فقد عرفت بها الشعوب ويلات الحروب ، فى البيت والشارع والمصنع والمدرسة . فلما وضعت تلك المجزرة أوزارها ، خلفت وراءها مشكلات بقى الانسان يعانى منها حتى اليوم ، وهى على الأيام تتعقد وتتفاقم ، ولا يجد لها الناس حلا : مشكلات الاسكان والاطعام وحرب الطبقات ، وتفشى أسباب

(٣) ولد فى العشرين من مارس ١٩٠١ بقرية سبك الضحك بمحافظة المنوفية . وتوفى فى ٧ مارس ١٩٧٧ .

النقمة والسخط ، والاستسلام للشك والقلق ، والهزء بكل القيم ، وانحسار السلطة بصورها سلطة العائلة ، وسلطة الكنيسة، أو الدين ، وسلطة الدولة ، وسلطة المدرسة • مما جعل النـاس يموجون بعضهم فى بعض ، ولا يجدون حرجا فى التفكير فى كل شىء ، ومراجعة كل قديم ، ومناقشة كل موروث والاجتراء على كل محترم ومقدس ، والرغبـة فى اقتحـام كل ميدان مغلق ، والتطلع الى كل غريب وبعيد وخصب •

وكان (محمد كامل حسين) ، وحدة انسانية فذة بظروفها، فهو من عائلة علماء مسلمين يؤمنون بأكثر عقائد الانسان استقرارا واستمرارا وقدما وهو الدين ، ثم هو تلقى تعليمـه فى المدارس المدنية البحتة التى لا تعلم من الدين الا قشورا ، وفى ظل نظام أجنبى وافد ، قهر البلد ، وأخذ على عاتقه ، أن يخرج أهلها من كل ما ورثوه وعاشـوا عليه قرونا ، وأن يحسن لهم طرازا من الحياة ، لم يألفوه ، ويطمئنوا اليه •

ولكنه كان من النخبة بين أهل وطنه ، اذ لحق بمعهد يعلم فرعـا من المعرفـة يقوم من ألفه الى يائه على الدليل المـادى ، المستمد من الواقع المحسوس ، والذى لا يدع مجـالا للتأثر أو التطوح ، مع ما وراء الظاهر الملموس ، ثم عانت حياته من مضاعفـة أخرى ، تلك سفره الى ليفربول ليتلقى هـذا العلم المـادى فى جامعة من جامعات الغرب ، ليعيش فى مجتمع يختلف

عن مجتمع المصريين والعرب والمسلمين والشرقيين ، بل انه مجتمع يضمر لهؤلاء جميعا شعورا من الاحتقار ، لأنه قهرهم فى ميادين الحرب والسياسة معا ، ثم استعبدهم واسترقهم فى مجالات العلم والثقافة ثانيا ، ثم جرهم وراءه من حطامهم فى دروب الحكم والادارة •

ولكن محمد كامل حسين لم يكن قادرا على أن يندمج فى المجتمع الجديد ، وأن يسقط كل خصائص قومه ويطهر عقله ونفسه من تراث آبائه وأجداده ، فيصبح غربيا ، يؤمن بأساليب الغرب فى البحث العلمى والدراسات التطبيقية ، كما يؤمن بمناهجه الروحية ، نظرته الى الناس ، وما يساور قلوبهم ، ويخالج نفوسهم • فقد كان أديبا ، قارئا وكان ما يقرأه من كتب مؤلفى الغرب ومفكريهم وما يشاهده من حياة أهل أوربا ، لا يؤدى الى الطمأنينة والثقة ، بل يدعو الى الشك المعذب والقلق المضنى •

وعاد فى العقد الثالث من القرن العشرين أستاذا لفرع من الجراحة كان مستحدثا ، وهو جراحة العظام • وهذه الجدة تمنح الأستاذ الذى يبدأ تطبيقه فى بلاده ، شعورا بالتميز ، كما يلقى عليه احساسا بمسئولية الرائد • وأستطيع أن أؤكد أن هذا كله امتلأت به نفس الجراح الشاب ، وهو يثوب الى بلده وقد اصطدم الشاب ذاته بالقديم فى مجال التعليم

الجامعي ، فور عودته الى وطنه . فقد كانت كسور العظام تعالج فى مصر تحت اشراف طبيب ينتمى الى الجيل القديم كان يضع فوق الكسور أثقالا من الجبس ، ينوء تحتها المريض ، وتحبسه عن الحركة فترة طويلة ، ولكن جراحة العظام تطورت خلال الحرب العالمية الأولى ، فقد كان استبقاء الجندى الجريح طويلا مما لا يتفق مع ظروف الحرب ، اذ أن المستشفيات كانت تميل الى اخلاء أسرتها ، وفى أقصر وقت لتستقبل أفواجا جديدة من الجرحى والمصابين ، وكانت الجيوش فى أشد الحاجة الى المقاتلين الجرحى الذين التأمت جروحهم ، وجبرت كسورهم ، ليعودوا الى ميادين القتال ، وأدى ذلك الى تطوير جراحة العظام ، فأصبحت الفترة التى يقضيها المصاب بكسور العظام فى المستشفى أقصر بكثير مما كانت ، وقلت طبقات الجبس وزنا وأصبحت لا تعوق المريض من الحركة داخل حجرته فى المستشفى ، ثم بعد ذلك فى بيته أو محل عمله .

فلما رفض الطبيب القديم فى الجامعة هذا الأسلوب الجديد ، نقل الدكتور محمد كامل حسين نشاطه الى مستشفى الهلال الأحمر ، حيث أنشأ قسما لجراحة العظام ، وهناك أقام جامعة صغيرة ، كان هو واضع أسسها ، وعميدها ، وأستاذها . وكانت تقاليده فيها ، روحية وخلقية ، كما كانت علمية وأكاديمية . فمن تقاليدها ، أن يجتمع هو ومعاونوه وتلاميذه كل يوم لمناقشة الحالات التى وفدت الى المستشفى ، وابداء

الرأى فيها ، وتتبع تطورها تقدما وتأخرا ، وكان يوزع على هذه الجماعة الصغيرة ما يرد الى مصر من المجلات الطبية والمراجع العلمية، ليقرأ كل فرد منها ما خصص له ، ثم يقدم ملخصا لما قرأ فى اجتماعات الجماعة ـ وكان من هذه التقاليد ، أن الطبيب لا يعالج المريض بالدواء والعملية فقط ، بل يكسب ثقة المريض ، وتحويله الى صديق ، ومما يذكره تلاميذه له أن طفلا كان يشكو سلا فى عظام حوضه ، استقبلته المستشفى ، فكشف عليه أحد الأطباء الشبان ، فاجتمع حوله الأطباء كالعادة ، فسأل الأستاذ ، محمد كامل حسين هذا الطبيب عن حالة الطفل فقال له سل فى عظام الحوض ، فقال الأستاذ وكيف عرفت ؟ فثنى الطبيب ساق الطفل الى الخلف ، فأن الطفل وتأوه ، وصدرت عنه شكوى فى صورة (آه) فغضب الأستاذ وقال لتلميذه « ان أعظم خطأ يرتكبه الطبيب ، هو أنه يؤلم مريضه ويحمله على التأوه . ان لفظ (آه) هى عنوان فشل الطبيب . ثم أخذ يكلم الطفل ، وهو يتحسس عظامه ، برفق ، ولطف ، وقد انشغل الطفل بكلام الأستاذ ، حتى استطاع جميع الأطباء الشبان ان يشخصوا الحالة جيدا والطفل لا يشكو ولا يتألم .

وأخيرا وضع الطبيب الشاب ، العائد الى بلاده ، من بلاد الغرب لجامعته الصغيرة فى مستشفى الهلال الأحمر لجراحة العظام ، تقليدا خلاصته عندما يسمع جرس عربة الاسعاف عند

منعطف الطريق حاملة جريحـا الى المستشفى ، يجب أن يكون طبيب النوبة قد فرغ من ارتداء معطفه الأبيض وأسرع عدوا الى حجرة العمليات ، ومعه معاونوه ، كيلا يضيع على المصاب أقل قدر من الزمن •

وليس هذا اجراء طبيعيا بقدر كونه تنبيها روحيا لا للأطباء المعاونين لمحمد كامل حسين وحدهم ، بل للأطباء المصريين كلهم، ثم لمصر بأسرها من ورائهم فهذا التنبيه والاستعداد والسرعة والأريحية والنجدة فضائل تعدى ، كما تعدى الرذائل •

لم يكن ممكنا لانسان هـذه خصائصـه العقلية وتجاربه الوجدانية ، أن يمضى فى الحياة جراحا عظيما بين الأطباء الذين يمارسون الجراحة ، ولا أسـتاذا كبيرا بين أساتذة الجامعـة ، ولا كاتبا متميزا بين الكتاب والأدباء ، ولا كل هؤلاء المجتمعين ، انما لابد أن يكون صاحب دور فى مرحلة التجديد الروحى لبلاده، وأصحاب هـذا الدور ، لا يكونون عـادة ممن يجذبون اليهم أضواء الشهرة ، ولا تذيع مؤلفاتهم ، يتنبه القراء الى خصائصهم، وأن تروج بين النـاس كتبهم ، فالشـهرة والذيوع فى الأغلب والأعم ، وقف على السطحيين ذوى البريق من أهل القلم وسدنة الفن • وان كان لكل قاعدة شواذ تدل عليها ، ولا تنقضها •

مصــادر ثقافتــه :

والمتتبع لكتابات كامل حسين ، يلاحظ عمق معرفته بالأديان وبالكتب السماوية عموما وعلى الأخص القرآن . كذلك تمكنه من اللغــة العربية وامتلائه بها . ولاشك أن نمو هــذه الثقافة وتعمقها على هــذا النحو يرجع الى نشأته فى « عائلة علمــاء مسلمين » كما أشار فتحى رضوان .

أما نموه العلمى وتعلقه بدراسة اللغات الحديثة ، فيرجع الفضل فيه الى المدارس المدنية . والدكتور حسين فوزى يذكر أنه تلقى دراســته فى المرحــلة الثانويــة بالمدرســة الالهاميــة بالقاهرة (٤) ، وهى من أكمل المدارس الأهلية فى زمانها . وأن هذه المدرسة قد هيأت له فرصة التفوق والنبوغ لأن « ذكاءه النافذ ، وتفوقه الجلى ، دفعا بأساتذته الى تركيز جهدهم عليه فى السنة النهائية ، ليرفع من شأن مدرسته فوق المدارس الأميرية . وقد جاء ترتيبه الأول على دفعته سنة ١٩١٧ وكافأته المدرســة بساعة جيب قيمة .

كما يذكر الدكتور حسين فوزى أيضا انه ظل الأول طيلة سنى دراسته بمدرســة الطب ، ويؤكد على الدور الذى لعبته المدرسة فى حياة كامل حسين بأن واحدا أو اثنين من مدرســيه

---

(٤) كانت تدرس كل المواد باللغة الانجليزية (ومكانها الآن بنياقادن) .

قد فتحا له « طاقة صغيرة يطل منها على المعــارف الخارجة عن مقررات وزارة المعارف العمومية .. وعلماء التربية صادقون فى اعطاء أكبر وزن لشخصية المعلم . فهو ليس الساقى للعلم بكأس مهراق ، وانمــا هو الموقد فى النفوس ذبــالة تتحول ضــوءا كاشــفا » .

« لقد أشعل فيه مدرسوه جذوة النبوغ والتفوق ، مما دفعه فى مرحلة الدراســة العليا ، الى الاعتماد على نفسه لتوســيع آفاقه ومداركه ، بالاطلاع على شتى أبواب المعرفة ، وأذكر له فى هذا الصدد التحاقه بمدرسة « برليتز » ونحن طلبة ، لندرس اللغة الفرنسية . وكان يسر الى فى شيخوختنا قائلا : اننى مدين لهذه اللغة بأسعد ما حققت وعرفت من تجاريب الحيــاة . ولهذا تفسير فقد حاز درجاته العلميــة فى انجلترا بجهده الدراسى . وحاز ما حاز فى فرنسا بنبوغه ! » .

« وفى لقاء لنا بفرنسا ، من تلك الزيارات التى كنا نتبادلها عبر المــانش ، ونحن نراجع أنفســنا وما حققه لنا الانفتــاح الكامل على حضــارة أوربا ، لا أنسى قول كامل حسين : أهم ما نصنعه بحياتنا فى هذه الحضارة ، أن نسد الفجوات التى تركها لنا تعليمنا فى المرحلتين الابتدائية والثانوية » .

موقفه من الحضـــارة الغربية :

ويتضح لنا من كلام الدكتور حسين فوزى انه كان معجبا بهذه الحضارة ، منفتحا عليها ، لا تصده عقد نقص ، أو مشـــاعر دينية متعصبة حتى رأى فيه أكمل صورة لرجل النهضة كما ينبغى أن يكون . ولعل هذا يختلف مع ما يقوله الأستاذ فتحى رضوان من انه لم يكن قادرا على أن يندمج فى المجتمع الجديد ، وان يسقط كل خصـــائص قومه ويطهر عقله ونفسه من تراث آبائه وأجداده، فيصبح غربيا يؤمن بأساليب الغرب فى البحث العلمى ، والدراسات التطبيقية ، كما يؤمن بمناهجه الروحيـــة ، نظرته الى النـــاس وما يساور قلوبهم ويخالج نفوسهم .

ولا أعتقد ان الاندمـــاج فى مجتمع الغرب كان يعنى ان يتحول كامل حســـين الى رجل غربى كما يظن الأســـتاذ فتحى رضوان . لكن الشىء الأكيد انه أخذ بأساليب الغرب ومناهجه العلمية والفكرية دون أن « يسقط كل خصائص قومه ويطهر عقله ونفسه من تراث آبائه وأجداده » ولا أدل على ذلك من ايمانه بمناهج العلوم البيولوجية والطبيعيـــة واعتناقـــه لنظرية التطور الطبيعى التى أكد صحتها فى كتاب « وحدة المعرفة » . أما تأثره بمناهج الحضـــارة الغربية الروحية فواضح من تمسكه الشديد بحرية الفكر وبالديمقراطية ، وفى رفضـــه المطلق للنظم الشمولية المذهبية أو الدينية . بل ان نظرية « الوادى المقدس » تدور حول

حرية الضـــمير الفردى وحدود الولاء للجمـــاعة ينتهى فيها الى تقديس حريـــة الفكر كأساس لحريـــة الضمير الفردى ، كمطلب ضرورى لصحة الجماعة وأن غياب الحرية من أمراض الحرمان يعتبر غيابها فى مجتمع ما مرضا قاتلا وهذا الداء هو السبب فى انهيار الدولة العثمانية .

وكذلك فان مسألة الاندماج فى المجتمعات الغربيـــة الحديثة مسألة نسبية ولا تتطلب أبدا سلخ الانســـان من تراث آبائـــه أو تجريده منه ، فقد اندمج طه حسين فى مجتمع فرنسا وأحب باريس حبا عميقا ، وكذلك فعل قبله رفاعة الطهطاوى وقاسم أمين، ولم يكن تقبلهم لمناهج هذه الحضـــارة وتمثلهم لقيمها دليلا على تخليهم عن سمات الأصالة الوطنية أو القومية .

كذلك لا أعتقد أن محمد كامل حسين كان يمكن أن يحقق هذه الدرجة من النبوغ والتفوق فى تخصصه لولا اندماجه مع هـــذا المجتمع واحترامه له . يذكر الدكتور حســـين فوزى فى معرض الحديث عن احترام كامل حسين للأديان والمقدسات أنهما كانا فى زيارة احدى الكنائس الكاثوليكية فى البريتانى ، ولاحظ أنه عند اقترابه من الهيكل قد أتى حركة فيها تبجيل وتقـــدير لهـــذا المكان . ولمـــا نظر اليه الدكتور حسين فوزى مستغربا ما يفعله ، قال له « لا تنسى اننى أعيش مع أسرة كاثوليكية فى لندن لعدة سنوات . واعتدت احترام هذه المقدسات » .

هـذه الحادثة البسيطة تفسر لنا جانبا هاما من فكر كامل حسين . هذا الجانب يتضح فى احترامه الكامل للمعتقدات الدينية وطقوس العبادة عند جميع الملل والمذاهب الدينية ، وحرصه الأكبر على علاقات المودة والصداقة مع الناس جميعا من أى جنس وأى دين ولون . ويرى فيها جميعا وسائل صالحة لتحقيق التطهر النفسى أو الهداية . ورغم أن منهجه فى « وحدة المعرفه » يشير الى ان الخلافات فى الاديان ترجع الى اختلاف فى تصور الناس ومواقفهم من الله . ورغم ان عقله يرى فى الأديان أشياء لا تنفق وهذا المنهج العلمى ، فهو يتحرج من الاشارة الى هذه النقاط تفصيلا حتى لا يشكك ولا يمس مشاعر المؤمنين بها مع ثقة كاملة بأن مستقبل العلم سوف يهيىء للأجيال القادمة فرصة الفهم الكامل لقوانين المعرفة والكون فيسقط كل ما لا يتفق معها تلقائيا ويجد الجميع أساسا طبيعيا مؤكدا لقيام الألفة والتفاهم والأخوة الانسانية .

مقومات شخصيته :

ومن المهم أن نشير هنا الى أن مواهبه الشخصية الفذة من ذكاء متقد ، وذاكرة قوية ، وقدرة فائقة على فهم لغته واللغات الأجنبية ، بل وطباعه الهادئة الرقيقة كل ذلك قد هيأ له فرصة اللقاء الخصب مع مجتمع الغرب . كما هيأت له فيما بعد حين عاد الى وطنه أن يكون صديقا لأستاذ الجيل لطفى السيد ،

ولطه حسين عميد الأدب العربي وللأستاذه الدكتور على باشا ابراهيم وكثيرين من رجال الفكر والأدب • ولاشك أن طبعه الهادىء ، وعقله الرزين كانا من أكبر مقومات شخصيته التى لفتت اليه الانظار من أيام الشباب • فشدت اليه اهتمام المدرسين الذين اختصوه بالرعاية وفتحوا له باب التزود من العلم •

وفى هذا الصدد يذكر الدكتور حسين فوزى انه لم يره غاضبا فى حياته الا مرة واحدة أثناء زمالتهم فى مدرسة الطب كان الطالب محمد كامل حسين يظهر أكبر من سنه ، ربما لشاربه الصغير ، وقطعا لهدوء حركاته ، وقلة كلامه بصوته المنغم الخفيض • لم أعرفه غاضبا الا فى ليلة من ليالينا بصحن الجامع الأزهر الشريف فى ابان ثورة ١٩١٩ • وقد ذهبت جماعتنا لمقاومة خطيب مدره ، يزمع اثارة الشعب ضد الوفد المصرى ، دفاعا عن الحزب الوطنى • وحين ظهر خبيىء هذا الخطيب ، نهض كامل من جلسة القرفصاء غاضبا ، يحرك خيزرانه ، قطعا ليست له ، ويعلن بصوت زاعق أن الخطيب لا يفقه شيئا مما يتخرص به • وهاج الحشد الكبير ، وأزاحوا الخطيب من المنصة •

ويمضى الدكتور حسين فوزى يؤكد على هذه الناحية « أكرر بأنني لم أر كامل غاضبا الا فى تلك المرة • فالرجل مثال فى الرزانة ، يحركه عقل فاحص ، وتسانده فلسفة فى الحياة

تعى كل أمر يدور حوله وتضع كل رأى فى موضعه ، حسب ميزان ، وتبعا لمكانه فى دوران المنطق » .

وهذه الاشارة تدل على انه كان يملك من الشجاعة ما يكفى للدفاع عما يؤمن به ويرى انه الحق . وفى نفس الوقت يفسر لنا هدوءه ورزانته سبب عزوفه عن الدخول فى المعارك الفكرية العلنية ، رغم ان ما جاء به من جديد فى العلم وفى المنهج كان كفيلا بأن يشعل العديد من هذه المعارك الا ان ميله الى الهدوء جعله يتخير من الأساليب ما يكفى لنقل ما يقول ودون أن يستفز أحدا من المحافظين والمتزمتين . بالاضافة الى أن ما قاله فى هذه الناحية وصعوبة فهمه لعمقه وتشعبه فى العلم والفكر والفلسفة ما كان يتيح لهواة الشغب الفكرى فرصة الامساك به . لكن هذا الموقف له جانبه السلبى ، فقد أدى الى شبه اهمال لمنهجه العلمى الجديد ولكثير من أفكاره الخصبة فى هذا المجال .

والتزام الصمت حول فكره وأدبه يعتبر تقصيرا ليس فى حق هذا الرجل العظيم فقط وانما فى حق أنفسنا ولعل من نتيجته هذا التدهور الفكرى والثقافى الذى نلمسه فى حياتنا . وما أتعس البلد الذى يكون نصيب كبار الرواد فيه هذا القدر من الاهمال .

وقد حرصت فى دراستى لأعماله أن أبرز نقاط الخلاف بينه وبين الفكر التقليدى أولا من باب الصدق مع ما يؤدى اليه

منهجه من نتائج ، وثانيا رغبة فى أن يكون لجهدى المتواضع هـذا صـدى يدفع الى زيادة اهتمـام عامة المثقفين بأعماله •
ولا أعتقد أننى قلت كل ما كان يجب أن يقال فى هـذه الناحية •

وليس فى مقدور باحث واحد ، مهما علا شأنه ، أن يقول كل شىء أو يعطى الكلمة الأخيرة فى تقييمه لفكر وأدب وعبقرية متعددة الجوانب من هـذا الطراز • وأنـا أعتبر بحثى هـذا دعوة لبدء النقاش الخصب حول أعماله وأفكاره حتى يصـل أثرها الى عامة المثقفين ، وحتى يثير مكامن الفكر الخصـب عند شبابنـا من المتخصصين فى مجـالات العلوم ليتابعوا ما بدأه كامل حسين لعله يخرج من بينهم نابغة يستكمل ما أشار اليه من فجوات فى نظام المعرفة • وظهور مثل هؤلاء النوابغ هو الذى يعطى قيمة حقيقية لتاريخ الفكر المصرى • وهو الذى يصـل حياة مصر الحديثة بماضيها العظيم ويؤكد دورها الحضـارى فى كل العصور •

اشـتغاله بالكتـابة :

يرجع اهتمامه بالكتابة الى فترة مبكرة من شبابه • وكان من الطبيعى لانسان هـذه مواهبه أن ينزع للتعبير عن آرائه العلميـة والأدبية • فابتدأ منذ تخرجه فى كليـة الطب يكتب فى

« السياسة الأسبوعية » • باسم مستعار هو « ابن سينا » ويشير الدكتور ابراهيم بيومى مدكور ، رئيس المجمع اللغوى ، فى مقاله بمجلة (الهلال عدد مارس ١٩٧٣) الى ذلك قائلا :

« لم تقف مقالاته عند الطب والصحة العامة بل امتدت الى (اللغة العربية) و « البحوث العلمية » ولو سمى نفسه (ابن المقفع) أو (عبد الحميد) ما عز عليه ذلك » •

وقد ظل يراسل المجلة أثناء بعثته فى انجلترا من ١٩٢٥ — ١٩٢٩ •

الاصلاح والتجديد :

ويواصل الدكتور مدكور قائلا « عرفته فى مجالس لطفى السيد •• وكان حديثه يدور غالبا حول الأدب واللغة والاصلاح والتجديد » • وكلمتا الاصلاح والتجديد تعطيان مفتاحا لفهم شخصيته • فقد تمثلت معانيهما فى كل عمل قام به وكل كتاب ألفه » •

يتضح ذلك فيما يقوله صديقه الأستاذ فتحى رضوان عن تجديده فى أساليب علاج كسور العظام واقامته مركز طب العظام بمستشفى الهلال ، واشارته الى دوره فى التجديد الروحى بارساء « تقليد خلاصته عندما يسمع جرس عربة الاسعاف عند منعطف الطريق حاملة جريحا الى المستشفى يجب أن يكون طبيب النوبة

قد فرغ من ارتداء معطفــه الأبيض وأسرع عــدوا الى حجرة العمليات ومعه معاونوه ــ لكيلا يضيع على المصاب أقل قدر من الزمن » •• وهــذا ما أكده الدكتور عبده سلام الذى قال انه تتلمذ على يديه وتعــلم منه معنى المســئولية وحسن العنايــة بالمريض •

وقد كللت جهوده فى هــذا السبيل بانشاء أول قسم لطب العظام بجامعة عين شمس وقد قدرت له الدولة هــذا الصنيع العظيم ومنحته جائزة الدولة التقديرية للعلوم ١٩٦٥ •

بل ان هذه الصفات هى التى كانت موضــع اهتمامه فيمن كتب عنهم •

... كتب عن لطفى السيد يقول أنه أرسطى من الطراز الأول ، ويعتبر تشابهه مع أرسطو سببا فى نجاح دعوته الفكرية • « لم يكن عفوا أن يكون الداعية الأكبر الى أرسطو فى مصر الحديثة هو أحمد لطفى الســيد ، بل لم يكن بدا من أن يكون الأمر كذلك » •• لأن نجاح الدعوة فى رأيه لابد له من شروط « انما تعد الدعوة ناجحة حين يكون القائم بها أقرب ما يكون طبيعــة وتفكيرا الى من يدعو اليه » •

أما فى مقاله عن الدكتور على ابراهيم فنجده يقول « انه

كان بناء ، فقد شيد كثيرا ، وكأنما عاهد على أن لا يترك شيئا مما تفخر به البلاد الحديثة الا أنشأ له شبيها فى مصر » •

وفى وصفه لهذين الرائدين ، يؤكد امتلاكه لموهبة الكتابة الأدبية ، وعلى الأخص للقدرة على رسم الشخصيات وابراز الصفات المؤثرة فى سلوكها • وقد تجلت هذه القدرة فى بنائه لشخصيات قصصه وبالذات فى « قرية ظالمة » • حيث نلاحظ براعة المؤلف فى استحضار الشخصيات التاريخية بسماتها النفسية والفكرية المعروفة فى الكتب الدينية والتاريخية •

بل أن كتابته لهذه الرواية يدل دلالة قاطعة على صدق البصيرة وأصالة التجديد بالاضافة الى نبل المقصد والغاية • فقد رأى الكتاب الغربيون الذين ترجموا هذه القصة الى الفرنسية والانجليزية أنه أول مسلم يتصدى لبحث حادث الصلب ويبين مغزاه الانسانى فى نطاق حدود ما رسمه القرآن • وكانت اضافته عظيمة فى توضيح الآية القرآنية على نحو صحيح وجديد •

وكذلك الأمر بالنسبة لدراسته للغة العربية واقتراحه لتيسير كتابة اسم العدد بابقائه دائما على حاله مع الفصل بينه وبين المعدود بحرف « من » فيقال دون تفرقة خمسة من الرجال وخمسة من السيدات • وذلك لأنه يريد لهذه اللغة أن تكون أداة علم وتحضر تيسر للأجيال الفهم والتفكير والتعبير • وان الصراع

بين العامية والفصحى يجعل عملية التيسير ضرورية وعاجلة حتى تواكب التطور الحديث فى الفكر والأدب فهو يقول عن « دعاء الكروان » (١٩٤٢) .

« آمل أن أرى يوما هذه اللغة الشعرية تتمدد دون ابتذال ، ودون أن تفقد من رونقها شيئا الى أن تصبح أداة فعالة لمجرد رواية حادثة وشرح موقف » . أى أن تصبح لغة دقيقة قادرة على تصوير المواقف الروائية دون ابتذال أو مبالغة زائدة .

لهذا دعا الى اعادة كتب النحو وتبسيطه وتعديل مناهجه حتى تتمشى مع روح العصر ، كما دعـا الى وضع معجم حديث « مصفى فى اختيار الالفاظ ، وحديث فى تحديد معانيه ، لا يذكر فيه اختلاف اللهجات ، ولا استعمال الأضداد للفظ الواحـد . ولا يقبل فيه الا صيغة واحدة للكلمة ، والا مصدر واحد للفعل ، والا جمع واحد للاسـم وتشرح الالفاظ شرحا دقيقـا واضحا واضحا يتمشى مع ما انتهى اليه العلم الحديث » . (من مقال الدكتور مدكور) .

لكن حماسه للغة العربية لم يبعد به عن موقف الصـدق أبدا . وهذا ما يؤكده فى بحثه عن « اللغة والعلوم » حيث يفرق بين لغة التفاهم والأدب والفـكر وبين لغـة العلوم الخاصـة بالمصطلحات العلمية . وهو يجد أن الفاظ اللغة اللاتينية هى

الأصلح للمصطلحات العلمية باعتبارها لغة ميتة لن تتطور ولن يدركها التغير وهذا يؤدى الى استقرار المعانى وسهولة المعرفة • ولهذا لا يرى مسوغا لترجمة الالفاظ أو المصطلحات العلمية من اللاتينية أو الاغريقية الى العربية •

محمد كامل حسين المفكر والأديب :

من الملاحظ فى أعماله ان صفة المفكر تسبق صفة الأديب عنده ، بل وتطغى عليها • فانشغاله بالمنهج وبالمضمون الفكرى فى كل ما يكتب يشكل سمة بارزة فى كتاباته حتى الأدبية الخالصة منها ، كقصة « قرية ظالمة » مثلا •

وهذا الجانب لمسه كل من تحدثوا عن كامل حسين ، وفى مقدمتهم الدكتور مدكور ، حيث يصفه بنعمة الفكر المستقيم ويقول عنه (مجلة الهلال مرس سنة ١٩٧٣) :

« وكامل حسين أديب موضوعى يعنى بالحقائق والمعانى ، يجمعها ويتخير أوثقها يهذبها وينسقها بحيث تبدو جلية واضحة • وقد مكنه اطلاعه الواسع من أن يعرض منها ألوانا شتى : فى الأدب والتاريخ ، وفى العلم والفلسفة • وهو ممن يؤمنون بوحدة المعرفة وارتباط جوانبها بعضها ببعض • فى علم النفس ما يوضح بعض المشاكل الأدبية ، والتاريخ وثيق الصلة بعلم الاجتماع

والسياسة ، وكثيرا ما تقود الدراسات الطبيعية الى ضرب من الميتافزيقا » .

وهذا الطابع الفكرى الخلاق الذى يغلب على كل ما يكتبه كامل حسين ، يهيب بنا أن ندرس خصائصه ومعالمـه قبل أن نبحث تطبيقاته فى أعماله . ولعله يجدر بنا أن نبحث فى بعض دراساته الأولى لنرى أهمية اهتمامه بهذا المنهج . وأول ما يلفت النظر فى هـذا الصدد دراسـته للطب المصرى القديم والطب اليونانى فى تعليقه على أقدم رسالة علميـة فى التاريخ والمعروفه ببردية أدوين اسميث فى الجراحة وقد ترجمها الدكتور كامل حسين عن برستيد الى العربية .

هنا نلاحظ فهمه لمـا يريد . فهو يرى أن العيب الأكبر فى الطب اليونانى يقوم على الاستنتاج بينما الطب المصرى القديم يقوم على المشاهدة .. يقول (متنوعات ـ ١ صفحة ٨٩) :

« والذى أؤكده ان هذه الطريقة هى خير الطرق لدراسـة الطب فالعناية بالمريض والفحص الدقيق المتتابع والمشاهدة الدقيقة والمقارنة بين الحـالات المتشابهة وقوة الذاكرة والتفكير السليم هى صفات العلم الحق وهى بالضبط الطريقة العلمية الحديثـة وهى تختلف اختلافا تاما عن الطب اليونانى « الذى يقوم كله على الاستنتاج » .

هذه هى معالم الطريقة العلمية عند كامل حسين يضاف لها ملمح التجريب فيما بعد . فهو يشير الى توقف علم الكيمياء القديم فى مقال (علمان ضالان) ويؤكد أن آسباب ضلال هذا العلم هو ان الكيميائيين القدماء استعملوا « طريقة الاستنتاج والمنطق فى فهم طبائع الأشياء وسنن الكون ، وهى لا تصلح لهذا النوع من البحث ، انما يصلح لذلك طريقة العلم التجريبى ولم تكن قد استكشفت حينذاك » وفحصه للعلوم القديمة على هذا النحو يؤصل فى عقله وفكره قيمة المنهج بحيث يصبح ضرورة للوصول الى نتائج سليمة ، وضرورة لتطور المعرفة الانسانية . بل انه يهتم باستخدام الطريقة الصحيحة فى المجال الملائم لها . وكلامه هذا يبرز المغزى الذى يشير اليه حين يقول انه يريد « العقل العلمى الذى يحلل ويعلل لا العقل الاقطاعى أو عقل القرون الوسطى الذى يسلم ويستسلم » .

وادراك كامل حسين لأزمة العقل الاقطاعى فى العصور الوسطى هى التى حمته من الوقوع فى شباك الثنائية الفكرية أو الازدواجية التى صبغت الفكر العربى منذ تلك العصور .

فقد اصطبغ الفكر الأوربى فى تلك العصور بصبغة التوفيق أو التلفيق بين الفكر الفلسفى الاغريقى والفكر الدينى ، فحاول الأوربيون التوفيق بين مثالية أفلاطون والمثالية المسيحية

وكذلك حــاولوا التوفيق بين فلســفة أرســطو وبين الدين المسيحى • وهى محــاولة لا تخلو دائما من قسر وتأويل حتى يتحقق الاتفاق بين السماء والأرض أو بين الأرض والسماء • وأدى ذلك الى وقوف العلم وتخلفه قرونا حتى جاء عصر النهضة وبرزت المفــاهيم الانسانيــة الجديــدة • وظهــرت نظريــات كوبرنيكوس وجاليليو وبدأ عصر الكشــوف الجغرافية ، فاذا الفكر القديم يتهاوى أمام ضربات النهضــة الجديدة التى تدعو بحسم الى فصل السلطة الزمنية عن السلطة الدينية وتحرير العقل من سلطة الكنيسة ورجالها •

هــذه الصفات التى كبلت الفكر الأوربى فى العصــور الوســطى انتقلت الى فكرنا العربى منذ ذلك الحين ومازالت تعمل فيه عملها • ورغم ظهور حركات فكرية أو حركات تنويرية فى الوطن العربى وفى مصر الا أن هــذه الحركات باءت جميعا بالفشل لأنها قامت على أساس هــذا الازدواج وهذا التلفيق • حتى رواد النهضة عندنا من رفاعة الطهطاوى الى طه حســين وقعوا فى هذا الخطــأ القاتل • بل ان مفكرا ممتازا مثل الشيخ على عبد الرازق حسين نادى فى كتابــه « الاســلام وأصــول الحكم » بفصل الدين عن السلطة السياسية برر ذلك على أساس دينى لا على أساس انسانى • وهذا يوصلنى لمــا أريد أن أقوله بشأن محمد كامل حسين الآن •

لقد انفرد وحده فى تاريخ الفكر العربى الحديث كله باقامة فلسفته ومنهجه على أساس تطور العلوم البيولوجية والطبيعية • وحتى نظريته فى التطهر التى شرحها فى الوادى المقدس تشير الى دين انسانى يبدأ بالانسان وينتهى اليه فى علاقته بالله •

ورغم ايمانه الأكيد بالله الا أنه لم يحاول فى كتبه التلفيق أو التوفيق بين الفكر العلمى والفكر الدينى • فهو يقول أن المنهج العلمى يبدأ بأوائل الأمور أما الفكر الدينى فيبدأ بأواخرها • ولكن ذلك لا يمنع أن يلتقى العلم والدين عند نتيجة واحدة مثل اثباته للقدرة الالهية على أساس منهجه فى المعرفة • لكن الفرق بينه وبين الآخرين أنه لم يطوع منهجه أو يلوى رقبته لاثبات هذه الحقيقة • وانما جاءت هذه الحقيقة نتيجة لتدرج القوانين الكونية بأن هناك قوة أعلى من الانسان وهذه القوة تتحكم فى تاريخ حياته وهى طبعا التى تجعل الموت قدرا محتوما على الانسان ، وهى التى يصفها رجال الدين بالقوة الالهية أو الله •

ولو كان من طبعه التوفيق أو التلفيق لفعل فيما توصل اليه من نتائج تتصادم مع المفاهيم الدينية السائدة • الا انه تمسك بالصدق مع المنهج ومع النفس ، فلم يسخر أحدهما لخدمة الآخر • بل ان هذه الثنائية الفكرية كانت من ضمن الفلسفات

التى عمل على هدمها فى « وحـدة المعرفـة » ووصفها بالعقم والتشـويش •

ولعل هذا ما يجعلنـا ، نحس انه يهتدى بمنهج راسخ لا يشط به هنا ولا هنـاك • والتزامه الصـادق بهـذا المنهج يؤدى الى تطوره الفكرى تطورا يتفق وما يحققه هـذا المنهج من حقائق • وفى ضوء هذا المنهج نجد انه يبدأ كتاباته الدينيـة بدفاع عن « القرآن » ثم ينتهى فى كتاب « الذكر الحكيم » وهو آخر ما كتب تقريبا سنة ١٩٧١ ، الى تقديم دراسـة قيمـة تتصف بالوعى والمنطق والحكمة •

وهذه الدراسة تتوخى روح العصر فهو يقول فى مقدمـة الكتاب : « ولكل عصر موضوعات تعنى مفكريه وقد لا تعنى من يأتون بعدهم » فالمسلمون كما يقول فى « أشد الحاجة الى من يفسر لهم القرآن تفسيرا دينيا خلقيـا خالصا » •ثم يقول بعد ذلك :

« هذا هو غرضى الأول من هـذه الدراسـات : أن أقدم للمسلمين ممن نشأوا على التفكير الحديث ما يقرب القرآن من افهامهم • والغرض الثانى هو أن أقدم للمسلمين من غير العرب ، ولغير المسلمين ، شرحا يفهمون به القرآن من حيث هو كتـاب منزل غرضـه الهداية والوعظ • ومن حيث هو أصـل العقيدة الاسلامية وأكمل تعبير عن خصائص النفس المسلمة » •

فهو يختار موضوعات بعينها تتمشى ومشـاكل الانسان المعاصر ، ويفسرها على أساس التأويل والتأمل والتدبر بطريقة تدخل الى عقول وقلوب الملايين الذين يجهلون القرآن اليوم . وهو يشير الى التفاسير القائمة ويقول :

« ومن العبث أن نرغمهم على ما لا يجدون له صـدى فى نفوسهم ، ولو قدمنـا اليهم دراسات قرآنيـة تعينهم على تفهم مشاكل نفوسهم التى لها مساس بحياتهم لكانت استجابتهم اليها أقرب وهدايتهم بها أكثر قوة وثقة » .

وهـذا لا يتعارض مع نظريتـه فى « الوادى المقـدس » ولا يناقضها . فهو يرى تبعا لهذه النظرية ان الدين أكمل وأشمل صور الايمان ، وان هـذا الايمان لازم لصحة النفس . وان الاستهداء بالله هو خير طريق للهداية .

بل أن مقاله « القرآن » الذى كتبه بالفرنسـية ١٩٣٣ ثم نشره فى كتاب « متنوعات » وأعـاد نشره فى كتـاب (الذكر الحكيم) بعنوان « اعجاز القرآن » وهو دفـاع عاطفى قوى عن القرآن . هذا المقال مع ذلك ينطبق مع نظريته ومنهجه . وقبل أن نناقش هذه النقطة لابد أن نعرف ماذا يقول المقال :

ان هذا البحث كتب سنة ١٩٣٣ بالفرنسية لمـا أبداه أستاذ

الفلسفة فى الجامعة المصرية وكان فرنسيا — من رغبته فى تفهم الأثر الذى للقرآن عند المسلمين فهو لم يتبينه عند قراءته مترجما • لهذا قصر كامل حسين بحثه على الناحية الأدبية الموضوعية التى يستطيع أن يسلم بها غير المسلم •

ولاشك انه أوضح هذه النقطة بجلاء وبين ان « للقرآن روعة أدبية ليست لكتاب غيره ، والمسلمون حين يستمعون الى آياته تأخذهم نشوة روحية خالصة ولا يبلغونها الا به » •

ان الأثر الأدبى والروعة البلاغية للقرآن كانت سببا فى تعلق العرب به وايمانهم « فلم يكن الايمان سببا فى الاعجاب بالقرآن وانما كان الاعجاب به سببا فى ايمان من آمن وحيرة من كفر » • وحين يقول (صفحة ٥) « وعندى ان سر العبقرية الاسلامية يتمثل فى معنى التقوى وهى المطابقة بين مبادىء الاخلاق والحياة الدنيوية » • انما يذكرنا بفكرته عن الضمير الانسانى ، فى جملته الأخيرة • أما عن الاعجاب بالقرآن وأثره فى تحقيق الايمان انما ينطبق مع نظريته فى التطهر من انه حالة نشوة نفسية أو حالة رضاء نفسى » تسمو فيها فوق طبيعتك وطبيعة الأشياء ، فوق ضرورات الحياة ، بل فوق العقل » •

أما الذى أعنيه بالدفاع العاطفى انه لم يتعرض للنواحى الفكرية خصوصا فى رده على الغربيين • اذ يقول (صفحة ٨)

« عاب الغربيون على القرآن ما فيه من نقص فى التنظيم المنطقى ومن نقص فى الذكاء وان الحجج التى يسوقها حجج عادية يعرفها كل انسان » . فرد عليهم قائلا :

« ان الكتب المنزلة كلهـا لم تعن بالذكاء ولم تخـاطب العقول وانما خاطبت الضمير الانسانى ودعته الى الخير قبل أن يستطيع ذكاؤنا أن يميز الخبيث من الطيب فمن السخف أن نلتمس فيها المنطق والذكاء فما أكثر كتب المنطق والجدل الذكى التى لم يكن لها فى الناس أثر ما » .

ولاشك فى قوة هذه الاجابة وحكمتها رغم أننى وصفتها بالعاطفية وذلك لأن الدين يتعلق بالعاطفة والضمير ولو أدخلنـا فيه المنطق والذكاء فتكون مثل علمـاء الكيمياء القديمـة الذين طبقوا منهج الاستنتاج حيث يصح منهج التحليل والتجربة . وهـذا ما أسـميه بالتزام الصـدق مع النفس والصـدق مع الآخرين . هو استخدام كل طريقة فى موضعها الصحيح .

ولو حاول أن يرد على هـذه الملاحظات بالعقل وبالمنطق لدفعه هذا الى العسف فى التأويل والتفسير مثل ما يفعل الكثيرون بدعوى تحويل الدين الى سياسـة أو اثبات ان القرآن يتمشى مع العلم الحديث وهو الأمر الذى يهاجمه كامل حسين ويسميه بدعة حمقاء ويرى انه لا يدعو للاطمئنان لأنه يقرن الثابت فى

القرآن بالمتغير مع العلوم وقد ينتهى هــذا الأمر باثارة الشك أكثر من تثبيته للايمان .

فهو حريص على أبعاد الدين والكتب المقدسة عن مجالات الطعن والشك عموما ســواء كانت فى السياسة أو فى العلم ليبقى لهذه الكتب دورها الأثير فى تهذيب ضمــير الفرد وتقويتــه ، وتثبيت الايمان .

ومن أجل هذا يرى فصــل الدين عن النظم الاجتماعيــة لأن الدين ثابت والنظم متغيرة . ولأن هــذا الارتباط قد أدى الى محنة كبيرة عند المسيحيين وعند المسلمين .

وفى مقال « محنتان متشابهتان » يقرر أن الصراعات الدينية التى قامت حول التجسد عند المسيحيين ، والتى ثارت حول خلق القرآن عند المســلمين كانت متشابهة فى تطورها وفى أســبابها ونتائجها . وينتهى من تحليله للحادثتين الى النتائج الآتية :

« فمن الناحية الفكرية نرى أن عقيدة المؤمنين الأولين من المسلمين والمسيحيين كانت تتمثل فى الايمــان الطــاهر النقى البسيط الذى لا يشوبه التفكير الدقيق فى مظاهر هذا الايمان ، ثم لم يلبث الناس أن بحثوا فى هــذا الايمان وحكموا المنطق والعقل وتفلسفوا » . وحتى لا يؤدى بهم هذا الحال الى الكفر ،

التمسوا الهدايـة عن طريق التأويل • وهنـا نشأت الطوائف الدينيـة •

وكان هـذا بداية الاختـلاف الفكرى • لكن الأمر لم يستمر فى حدود الفكر • فقد حاول بعض رجال الدين الاستعانة بالحكام ، فى بعض الأحيـان ، واستغل الحكام بعض هـذه الطوائف لخدمة أغراضهم • ومن هنا تحول الأمر الى صراعات دموية لا علاقة لها بالدين ولا بصحة الاعتقاد •

هذا التحليل الدقيق النزيه لمحنتى المسيحيين والمسـلمين يؤكد نتيجة واحدة ان ربط الدين بالسياسة فيه ظلم للدين وظلم للسياسة وظلم للناس فى كلتا الحالتين • كما أن المؤلف أشـار الى نتائج هذا الارتباط السيىء سواء فى محاكم التفتيش أو فى ظل الخلافة الاسلامية فهو يعتبر هـذا انحراف عن الصراط المستقيم • يقول (فى صفحة ٨٨ الوادى المقدس) :

« وقد تهتدى النفوس وهى ضعيفة ومقدساتها باطلة كما هى الحال عند البدائيين وقد تضل نفوس قوية ومقدساتها حق كما حدث فى محاكم التفتيش • وليس للهدى والضلال معيـار الا المعيار النفسى البحت » •

كذلك يشير الى غياب حرية الفكر فى ظل الخلافة العثمانية

ويعتبر أن ذلك الداء هو الذى قضى على هذه الدولة وسيقضى على أى نظام تنعدم فى ظله حرية الفكر .

لقد سألت نفسى وسألت غيرى عن موقفه السياسى . وأخبرنى الدكتور حسين فوزى انه لم ينضم الى الأحزاب القديمة ولم يكن له موقف ظاهر فى هذا المجـال . لكننى مؤمن أشد الايمان أن أى كاتب له منهج فكرى لابد أن يكون سياسيا بالضرورة . وقد اكتشفت صـدق ذلك بعد أن فرغت من دراسـة كتابيـه « التحليل البيولوجى للتاريخ » و « الوادى المقدس » اذ تأكد لى أنه ليبرالى النزعة يميل الى الديمقراطيـة السياسـية والى الاشتراكية الاقتصادية وهـذا واضح فى تحليله للديمقراطيـة والشـيوعية :

فهو يعتبر اقرار الديمقراطية للطبقية الاجتماعية رجعيـة فكرية بينما يعتبر الديكتاتورية السياسية عند الشيوعيين نظاما رجعيا . وأنه يرى المساواة السياسـية فى الديمقراطية عمـلا تقدميا والمساواة الاقتصادية فى الشيوعية أيضا عملا تقدميا لذلك يكون تحقيق الديمقراطية السياسية والمساواة الاقتصـادية فى أى نظام اجتماعى عملا تقدميا يتفق مع منهجه فى التاريخ ونظرته لمستقبل البشرية ، اذ يتنبأ كامل حسين بسقوط كل امتيـازات

التفوق بين الأفراد ، نتيجة التقدم العلمى الهائل فى مجال انتاج الأعضاء التعويضية والوسائل البصرية والسمعية والأوتوماتيكية.

وقيام مثل هذا النظام لن يتحقق الا بالحرية السياسية أولا وزيادة قوة الأفراد حتى تحول قوة الفرد دون طغيان الجماعة وحتى تحد هذه القوة من شرور الجماعة . وهذه النقطة هى محور قصة « قرية ظالمة » وقصصه الأخرى القصيرة .

وحدة التطور التاريخي

ولعل أهم الأفـكار المسيطرة على فلسفة الدكتور محمد كامل حسين هى فكرة التطور البيولوجى أو التطور الطبيعى كما سماها فى كتاب « وحدة المعرفة » وهى ذات الفكرة التى يقيم عليها ايمانه بوحدة التطور التاريخى • وقد يكون من المفيد لنا ونحن بصدد مناقشة كتاب « التحليل البيولوجى للتاريخ » أن نرجع الى كتابه « متنوعات ــ جزء أول » لنرى محاولتـه الأولى لتفسير بعض الأحداث التاريخية فى ضوء هذه النظرية •

ففى مقال « محنتان متشابهتان » يتناول المؤلف محنة خلق القرآن عند المسلمين ومحنة التجسـد عند المسيحيين كحادثتين تثبتان وحدة التطور التاريخى •

وفى تحليله للأحداث المؤلمـة التى قامت حول الخلافات المذهبية عند الفريقين يرى أن من أسبابها الأساسية رغبة رجال الدين فى السيطرة والنفوذ مما دفع بعضهم للاستعانة بالحكام مما أدخل العوامل السياسية وجعلها المحرك الرئيسى للصدامات الدامية بين المسيحيين بعضهم بعضا حول فكرة تجسد المسيح •• وبين المسلمين بعضهم بعضـا حول فكرة خلق القرآن ، أى ان العوامل المحركة للصراع كانت عوامل الاختلاف الفكرى متمثلة فى ظهور الطوائف الدينية ثم الرغبة فى استغلال هـذا الخلاف الفكرى لتحقيق مصالح سياسية وشخصية •

وربما كان منهجه هنا يتشابه كثيرا مع ما أخذ به شبنجلر فى كتابه « اضمحلال الغرب الذى أثبت فيه وحدة التطور التاريخى • والدكتور كامل حسين يعلن اعجابه بهذه الفكرة فى السطور الأولى من مقال « محنتان متشابهتان » بل يؤكد ثقته فى منهج شبنجلو قائلا « ولا يستطيع الانسان ان يتجاهل نظريات مفكر يرى قبل الحرب العالمية الأولى ان الدين الجديد الذى يقوم فى العصور الحديثة يقوم فى الروسيا ، ويتحقق ذلك بعد بضع سنين عند قيام الشيوعية ، ويرى أن عظمة باريس ولندن ستزول وتحل محلها موسكو ونيويورك » •

وعند اعادة نشر المقال فى كتاب « الذكر الحكيم » نجد أن المؤلف يضيف تعليقا على نظرية شبنجلر حيث يقول « ومع ان هذه النظرية بنيت على استقراء تاريخى بحت الا ان لها سندا من قوانين التطور البيولوجى » •

وهذه الفكرة الأخيرة هى التى استولت على فكر كامل حسين فى تحليله للتاريخ الانسانى كله • وجعلته يتجاهل منهج شبنجلر رغم اعترافه بصحة نتائجه • بل أنه يرفض كل المناهج الأخرى التى ترى ان العوامل الروحية والاقتصادية والاجتماعية هى القوى المحركة للأحداث التاريخية • وعلى هذا يرفض جدلية هيجل المثالية ، والمادية التاريخية لكارل ماركس وكذلك

منهج « التحدى والاستجابة » لتوينبى ، وذلك بحجة ان هذه المذاهب كلها تقوم على الايمان بوجود قوى لها الأثر الأكبر فى تحديد مسار التاريخ وكلها تؤدى الى نوع من الجبرية •

والواقع أن كامل حسين باعتمــاده على عامــل « مطلق الزمن » وحده فى تفسير الظواهر التاريخية ، يكون قد فرض على التاريخ الانسانى نوعا آخر من الجبرية ، مما أدى به الى بعض النتائج الخاطئة ، على عكس ما حدث بالنسبة لوحدة المعرفــة اذ أدى منهج التحليل البيولوجى الى نتائج رائعة حقا •

لكن هذا كله لا يقلل من قيمة كتاب « التحليل البيولوجى » للتاريخ فهو محــاولة فكرية جادة وجديدة لوضع تخطيط لفلسفة شاملة للتاريخ الانسانى فى ضــوء منهج التطور البيولوجى • وكى تتبين لنا القيمــة الحقيقية لهذا الجهــد القيم ، لابد من تحليله أولا بما يليق به من دقة وشــمول •

فالكاتب يؤمن بامكانية الدراسة العلمية للتاريخ والكشف عن القوانين التى تحكم حركته فهو يقول « والحقائق وحدها •• لا تصبح علما حتى تكشف عن القوانين التى تنظم علاقة هــذه الحقائق بعضها ببعض » • ووسيلته الى ذلك هو المنهج العــلمى الذى يعتمد على « المشــاهدة الدقيقــة والمقارنــة الصــادقة والاستنتاج الحق » والتاريخ فى رأيه هو ميدان هذه المشاهدات• ولا يعنى هــذا أن تكون القوانين التاريخية فى طبيعتها مطابقة

لقوانين العلوم الطبيعية حيث النتائج حتميــة والاستثناء غير مقبول . « فليس على التاريخ أن يصدق فى تفصيلاته . وهو صادق من غير شك فى عمومياته وقضاياه الكبرى هى أصدق ما فيه . وعليها وحدها المعول فى اثبات القوانين التاريخية » .

لكن ما هو التاريخ ؟

والتاريخ هو أثر الزمن فى كائن حى بعينه هو الانسان . هذا التحديد يجعل الزمن محور بحوثه كلها . فليس من شأن التاريخ أن يبحث فى طبيعة الانسان وغرائزه وفنونه واجتماعياته مجردة عن الزمن . هذا شأن الفلسفة والعلوم . أما التاريخ فانه يبحث فى هذا كله فى نطاق تتابع هذه الأمور تتابعا زمنيا .

مطلق الزمن :

وحين يبدأ المؤلف فى تحقيق هذه الغاية ، نجد أنه يرجع التطور التاريخى كله تقريبا الى عامل واحد هو مطلق الزمن . وهو يؤكد أن « البحث فى القوانين التى تحدد نظــام الأحداث التاريخيــة يدعو حتما الى البحث فى الزمن من حيث أثــره فى الكائنات الحيــة عامة والانسان خاصــة ويدعو الى البحث فى الانسان من حيث تأثره بالزمن .. ذلك ان مطلق الزمن عامل قوى فى تكييف الأحــداث التاريخية وتحديد أسلوبها ونظامها » .

وفى معرض النقد نجد ان عــامل « مطلق الزمن » قــد استوقف ناقدا كبيرا هو الأستاذ محمود العالم فى مقاله « دفاع

عن التاريخ » (الرسالة الجديدة ١٩٥٧) الذى حلل فيه منهج الكتاب تحليلا وافيا بدأه وأنهاه بتقديره واشادته بغزارة علم الدكتور كامل حسين وجدية نظرته وأهمية وأصالة محاولاته لوضع تخطيط شامل لتفسير التاريخ على أساس بيولوجى • ولعل الأمانة تدعونى هنا الى الاعتراف بأن هذا المقال هو الذى لفت نظرى عام ١٩٥٧ لمكانة الدكتور كامل حسين كمفكر وأديب • لكن هذا لا يمنع من الاعتراف بأن الأستاذ محمود العالم يأخذ بمنهج المادية التاريخية الذى يرى أن شكل الانتاج وعلاقات القوى المنتجة هى التى تقرر حركة التاريخ على اساس الصراع الطبقى •• وهذا المنهج يقلل دور العوامل الروحية والفكرية فى تطور الحركة التاريخية ، اذ لا يعترف لها بدور أساسى كبير •

ومع ذلك فان نقده لكتاب « التحليل البيولوجى للتاريخ » يتسم بكثير من الموضوعية ويقدم لنا وجهة النظر المختلفة « منهجا ومذهبا » • وبهذا تتضح لنا بعض جوانب الصورة ويسهل علينا التفكير فى المنهج الملائم لتفسير أحداث التاريخ • وأرى أنه لا يكفى لتحقيق هذا الغرض الاعتماد على منهج واحد بذاته • لكن علينا قبل أن نخوض فى الحديث عن هذه النقطة أن ننظر فيما قدمه هذا الناقد الماركسى •

وهو يرى أن « الدراسة العلمية للأحداث التاريخية لا تدعو حتما ــ كما يقول كامل حسين ــ الى البحث عن الزمن،

بل تهيب أولا بتحليل الأحداث ودراسة ما بينها من علاقات ، وتحديد قوانين حركتها » • ودراسة ظاهرة تاريخية كالاقطاع مثلا ، تستلزم في نظره الكشف أولا عن عناصر هذه الظاهرة من قوى انتاجية وعلاقات انتاجية ونظم سياسية ومؤسسات فكرية وملابسات تاريخية عامة ، ثم أن نكشف ثانية عما بين هذه العناصر جميعا من تفاعل وتداخل وصراع ، وليس هناك منهج علمي يحتم ــ كما يرى كامل حسين ــ ان تنحرف عن هذا المنهج لندرس أثر الزمن في الاقطاع • مثلا وهو يرى أن مفهوم الزمن « مفهوم خال من الدقة العلمية • والزمن بغير شك حقيقة موضوعية ، ليست من صنع عقولنا كما يزعم المفكرون المثاليون ، ولكنها في الوقت نفسه ليست حقيقة منفصلة عن حركة الأشياء والأحداث ، بل الزمن شكل موضوعي لهذه الحركة • وعندما نفصل الزمن عن حركة الأشياء ، فاننا نفقده مضمونه ودلالته ونجعل منه قوة سحرية غامضة » • ثم يقرر محمود العالم ان المؤلف يقوم بهذا الفصل بين الزمن وحركة الأشياء •• ويتحدث « عن مطلق الزمن » وبهذا يخرج عن النهج العلمي الى النهج المثالي الميتافزيقي » •

فاذا تجاهلنا دراسة العوامل الاجتماعية التي أوجدت ظاهرة الرق مثلا والتي جعلت لهذه الظاهرة أشكالها وقوانينها المختلفة، ثم العوامل التي جعلت الظاهرة تتلاشى تاريخيا واكتفينا بأثر مطلق الزمن في هذه الظاهرة لا تهينا الى موقف يفسر قيام

ظاهرة الرق وتلاشيها تفسيرا تلقائيا خالصا . وهــذا لا يساعد أبدا فى الكشف عن القوانين الداخلية لحركة الأشياء .

هــذا مجمل رأى الأستاذ محمود العــالم فى فكرة مطلق الزمن ، ولاشك عندى ان الفصل بينها وبين حركة الظواهر يجعل منها قوة غامضــة تعادل الفكرة المطلقة أو الكلية فى فلسفة هيجل المثالية . بل أن هيجل لا ينسى التفاعل بين العوامل الذاتيــة والموضوعية فى تفسير التاريخ .

والواقع أن الدكتور كامل حسين قد أدرك غموض فكرة الزمن المطلق وتحدث عنها فى « وحدة المعرفة » قائلا ان عجز الانسان عن ادراك حقيقة الزمن وطبيعته ادراكا مباشرا جعل للمعرفة حدا لن تستطيع أن تتعداه . والزمن حقيقة لا ريب فيها ولكنها أكثر الأمور غموضا على العقل ، وذلك لأن الانســان ليس له احساس خاص يدرك به الزمن ادراكا مباشرا ، وانمــا تدركه بأثره فى الأشياء » .

وهو لا يعنى « الزمن الكونى الرياضى الذى يعده الطبيعيون البعد الرابع ، ولا الزمن الفيزيائى الذى يقيس به الرياضيون سرعة جسم ساقط فى أى نقطــة من سقوطه . وانما يعنى على التحديد الزمن التاريخى الذى نعرفــة بتتابع الحوادث فيه » . « بل انه يؤكد فى « وحدة المعرفة » (صفحة ٤٧) « ان من الخطأ العقلى ان تتصــور الزمن على انه من عوامــل التطور ، ولعل

التطور عملية تركيبية خاصة بما ركب فى الكائنات الحية من صفات ، وليس لنا ان نجعل للزمن شأنا فيه » .

فاذا كان مطلق الزمن لا يصلح عاملا لتفسير التطور فى الكائنات الحية الأخرى ، فكيف يكون عاملا حاسما فى تفسير حركة التاريخ الانسانى رغم تميز الانسان بقوة العقل والضمير والارادة ، وهو ما يقرره المؤلف فى « وحدة المعرفة » .

الزمن التاريخى واثره فى الانسان :

يرى المؤلف أن الزمن يعمل عمله فى الانسان على أوجه ثلاث :

١ ـ الحياة الداخلية ممثلة فى طبائعه وغرائزه .

٢ ـ الحياة الخارجية ممثلة فى مظاهر النشاط الاجتماعى والانسانى .

٣ ـ الحياة العقلية ممثلة فى التفكير والعلوم .

وبالنسبة للحياة الداخلية ، فالمؤلف يؤكد انه لا أثر للزمن فيها وتاريخها خط أفقى ثابت فقد ظلت طبائع الانسان وغرائزه على ما هى عليه من آلاف السنين وستظل دون تغير لآلاف أخرى لأنها نتيجة للتركيب الخاص بالنفس الانسانية . (وسيظل الناس يحبون ويكرهون ويؤمنون ويكفرون ويغضبون ويرضون كما كانوا يفعلون من قبل .. وعلى هذا لا يكون لطبائع الانسان وغرائزه تاريخ) .

وهو يرى أيضا أن الجماعات والمدنيات لها صفات غالبة ثابتة فيها ثبوت الغرائز فى الأفراد . لكنها ليست مجموعة غرائز الأفراد التى تتكون منهم الجماعة . فغرائز الأفراد تتمثل فى الخير والشر ، والايمان والكفر ، وغرائز الجماعة تتمثل فى الشعور بالظلم والعدل والحرية والولاء والتمرد .

والواقع ان هذا الكلام ينطبق الى حد كبير مع ما توصل اليه المؤلف فى « وحدة المعرفه » عند شرحه للجهاز العصبى للمخ وظهور قوى الذكاء والتفكير فى العقل . فهو يعتبر الايمان غريزة لانه متعلق بنظام التطور البيولوجى حين يقول « واكبر المعنويات الانسانيه واشملها واعمقها هو الايمان وهو جماع النظام العقلى كله . وهو مظهر هذا النظام . والذين يحرمون صفه الايمان يدلون بذلك على ان فى نظام عقلهم اضطرابا خلقيا يصعب علاجه .. لان الايمان مهما يختلف موضوعه يدل على نظام فى التكوين العقلى المخى » .

ولاشك فى رأى ان فقدان الانسان للايمان عموما يؤدى الى حالة ضياع واضطراب نفسى يقود للانتحار أحيانا . اننا اذا سلمنا بهذا الرأى عن الايمان ، فقد نفهم ما يعنيه المؤلف حين يرى أيضا أن الخير والشر من الغرائز . لكننى اختلف معه فى القول بأن هذه الطباع والغرائز غير قابلة للتغيير . فعواطف الانسان المعاصر ليست بقوة عواطف الرجل البدائى مثلا سواء

كان ذلك بالنسبة للحب أو الكره أو الغيرة • يؤكد هذا عندى ما أوضحه المؤلف أيضا فى « وحدة المعرفة » من ان العقل « يتأثر بالحياة الداخلية التلقائية داخل المخ وهى تتأثر بنظامه الداخلى وبما أدخل عليه الذكاء من تغيير » •

ومعنى هذا ان الذكاء الذى هو نتيجة تجارب مختزنة فى المخ يؤثر فى العقل وبالتـالى يؤثر فى هـذه المفاهيم التى يرى المؤلف انها غرائز ويرى الأستاذ محمود العالم انها قيم اجتماعية قابلة للتطور والتغيير •

ثم القول بأن الجماعات والمدنيـات لها غرائز ، فالعـدالة والحريه والشرف أمثله على الغرائز الاجتماعية • وان المدنيـة الصينيه غريزتها خلقية وغريزة المدنية الهندية ميتافزيقية وغريزة المدنيـة بالشرق الأوسـط دينية والاغريقية منطقيـة جمالية ، والرومانية سياسيه اجتماعيـة وغريزة المدنيـة الغربية طبيعيـة تجريبية • « وهذه الصفات لا تفارق المدنيات من أول أمرهـا الى آخره وليس للزمن عليها تأثير كبير » •

ولا أعتقد ان هذه الأشياء تدخل تحت باب الغرائز أبدا ، فهى فى رأى مجرد مظاهر لمراحل تاريخية معينة ، وطول هـذه المراحل وبطء التطور التاريخى هو الذى يجعل لها الغلبة على المظهر العام • لكن ثبوتها أمر مستحيل • ولا أعتقد أن التطور

العلمى والصناعى فى الصين واليابان يتم الآن على أساس خلقى بل على أساس طبيعى تجريبى • وهذا يبين أن الطبيعة التجريبية انما جاءت تطويرا للطريقة العلمية التى بدأت منطقية جمالية فى اليونان وتجريبية عملية فى بعض بحوث الكيمياء فى الشرق الأوسط فى العصر الوسيط ، ومنها انتقلت الى أوربا لتزدهر فى ظل النهضة الأوربية وقيام الدول الحديثة مدعمة بالامكانيات المادية التى حققتها الدول الغربية نتيجة استعمارها لدول آسيا وافريقيا • ولو تماثلت ظروف التطور التاريخى فى جميع الدول وهذا فرض مستحيل ، لتبنى العالم كله هذه الطريقة التجريبية •

أما الأستاذ محمود العالم فيقول « فالطبيعة التجريبية مثلا ليست غريزة المدنيه الغربيه وانما هى ظاهرة فكريه تقوم على آسس اجتماعية وتاريخيه • انها ثمرة للثورة الصناعيه وللنظم الراسماليه وهى لا تقف عند حدود الغرب وانما تصاحب النظام الاجتماعى سواء تحقق فى الهند آو فى الشرق الأوسط ، وهى تتطور وتنمو كذلك فى ظل النظم الاشتراكية سواء تحققت هذه النظم فى الشرق أو الغرب » •

ولعله يبدو الآن واضحا انه لا ثبات ولا جمود فيما يسميه المؤلف بغرائز الأفراد ، والجماعات والمدنيات • فكل شىء يدركه التعديل والتبديل اذا تهيأت الظروف الاقتصادية والسياسية

والاجتماعية . وأعتقد أن بلدنا وهى من بلاد المدنيــة الدينية لا ترفض الطبيعية التجريبية الآن بل أن حربنا مع اسرائيل أدت فى مرحــلة ما قبل أكتوبر الى التجريب فى الأسلحــة والمعدات والكبارى وهدم جسور التراب التى اقامتها اسرائيل على الضفة الشرقية لقناة الســويس مما يعطى الدليل على ان العقل المصرى قابل لهذه الطريقة وقادر عليها لو تهيأت له الامكانيات ، كذلك الفصل بين ما يسميه الدكتور كامل حسين بالحياة الداخليــة والحياة الخارجية انما يشــكل نوعا من الثنائية الفكريــة التى هدمها الدكتور بنفسه فى « وحدة المعرفة » وخاصة فى حديثه عن مشكلة النفس حيث يقول (ص ١٧٣) :

« فعلينــا ألا نبقى على النفس على أنها شىء مستقل عن الجسم يؤثر فيه دون أن يكون منه . وعلينا أن ننظر الى النفس والشخصية على أنهما صورة النظام الداخلى للمخ » .

فالحياة الانسانية تفاعل بين ما هو ذاتى وما هو موضوعى. بين ما هو داخلى وما هو خارجى ، وهــذا التفاعل عملية دائمة النمو والتغيير تتأثر بظروف البيئة والمجتمع والحيــاة العقلية وتؤثر فيها ولعل هذا يتلاءم أكثر مع قوانين التطور الطبيعى التى أثبت الدكتور صحتها فى « وحدة المعرفة » وأعطتنا الأمل والثقة فى مزيد من التطور ومزيد من العلم .

ومهمة العلم هو أن يكشف القوانين الداخليـة للتفـاعل الحادث بين الحياة الداخلية والحياة الخارجية لكن المؤلف على حد تعبير محمود العـالم « بفصـله الزمن عن حـركة الظواهر النفسية عجز عن ان يتبين حركتها المتناسجة مع حركة الظواهر الاجتماعية ، وأصبح عامل الزمن عامل اخفـاء وطمس لقوانين هذه الظواهر لا عامل تحديد وتنظيم وكشف » .

وحين ننتقل لموضوع الفنون نجد أن منهج المؤلف يتضح كثيرا فى عملية الفصـل بين الشكل والموضوع فى الفن بطريقـة حادة ترفضها كل مدارس النقد الحديث تقريبا .

الفنـــون :

فالدكتور كامل حسين يرى أن الفنون هى الصورة التى يعبر بها الانسان عن طبائعه وغرائزه وعواطفه . وهى تتعلق بالحياة الداخلية للانسان وتاريخها من هـذا الوجـه قليل التغير ، ولا يتقدم تقدما مطردا على الزمن . ولهذا فان تاريخ الفنون يكاد كله يسير على نهج واحد .

ان موضوعات الفنون واحدة لا تتغير لأنها ترتبط بالطباع والغرائز والعواطف التى لا تتأثر بالزمن . « والتغيير الذى تراه فى فنون الأفراد يرجع الى زيادة خبرتهم بوسائل الأداء وتحسن أسلوبهم وليس هذا تغييرا حقيقيا » . فالتغيير يطرأ على الأسلوب

فقط لأنها « أعمال انسانية خاضعة للاختيار والذوق ويؤثر فيها الملل فتاريخها من هـذا الوجه دورى على نحو ما » •

فالمذاهب الفنية تظهر بطريقة دورية بدافع الملل الذى لولاه « لرضى الناس بالكمال دائما » وهنا تتبين عدة مراحل فنيـة أو مدارس يتوالى ظهورها على النحو التالى :

* بعد مرحـلة الطفولة تأتى المرحـلة الكلاسيكية حين تكتمل أساليب التعبير نتيجة ظهور عملاق يبلغ بالفن حد الكمال طفرة •
* ثم مرحـلة الصنعـة والتقليد بعد أن تعرف قواعـد الجمـال •
* يليها مرحلة الثورة على الكلاسيكية أو الرومانتيكية التى تقوم على الدعوة للعودة للطبيعة •
* بعد هذه المرحلة تبدأ مرحلة التقلبات فى الفن « فنراه يرتفع قليلا فلا يبلغ أسمى مراتب الرقى ، ثم نراه يهبط دون أن يبلغ غاية الانحطاط » •

ومن العناصر الأساسية فى تاريخ الفن ، ان الفنون عمل فردى فى جوهره فهى تزدهر فى عصور التفوق الفردى والملكيـة المطلقة تساعد على ازدهار الفنون لاتفاق العصرين فى التفوق

الفردى • وتفوق الجماعات لا يساعد على ازدهار الفنون • وتقدم العلوم يؤدى الى اضعافها •

وفيما يختص بتقسيم هذه المراحل وتتابعها أو ما يقوله المؤلف عن سماتها فهو أمر لا خلاف عليه وتاريخ الفنون يؤكده• كذلك الأمر بالنسبة لظهور العبقريات الفنية فى عصر التفوق الفردى • لكن ارجاع هذه الدورية لعامل الملل وحده فهو أمر ليس من السهل الاقتناع به خصوصا وان الملل حالة نفسية فردية لا جماعية • ولا تكفى لتفسير ظهور مدارس الفن المختلفة كالرومانتيكية أو الواقعية مثلا • لأن هذه المدارس كانت تعبيرا عن متغيرات عديدة فى النواحى الاقتصادية • والاجتماعية والسياسية •

وليس الاختلاف بين الواقعية أو الرومانتيكية وبين الكلاسيكية مثلا مجرد اختلاف فى الأسلوب أو الأشكال الفنية• بل كان اختلافا فى هدف الفن ومضمونه أيضا •

وعلى هذا لا يمكن الفصل ــ بطريقة حادة ــ بين أسلوب الفن ومضمونه كما فعل المؤلف ، وقد حدث ذلك لأنه جمد مضمون الفن وفرق بين مذاهبه أو مراحله على أساس الأسلوب فقط •• وتبعا لهذا أصبح تاريخ الفن عنده هو تاريخ الأساليب الفنية •

الأديـــــان :

يقول المـؤلف « الايمـان غريـزة من أقـوى الغرائـز الانسانية » ... ومن حيث هو غريزة لا تاريخ له . بل هو مثل الحب سيظل قائما فى النفس الانسانية ما دام الانسان انسانا .. والدين هو هـذه الوسيلة للتعبير عن الايمان تعبيرا منظمـا ومن هذه الناحية لا يختلف تاريخ الأديان عن تاريخ الفنون . وتظهر مراحل تطورها على النحو التالى فى مراحل تشبه الفنون تقريبـا .

* تبلغ الأديان غايتها من الرقى بظهور الأنبياء ونزول المقدسات السماوية .

* يعقب ذلك عهد أقل منه عظمة حيث « يصبح الناس أكثر عناية بالعبادات منهم بالايمان . والعبـادات هى المظهر الخارجى للدين . والعناية بها كثيرا ما تكون دليلا على ضعف الايمان النفسى العميق . وهو بالضبط ما عابه سيدنا عيسى على المتدينين الفريسيين من بنى اسرائيـل » .

* ثم يقوم الأولياء والقديسون فى عصور مختلفة يردون الناس الى الايمان الحق وينادون بنبذ التدين الكاذب. ولايزال الدين يقوى على التوالى ، لكنـه لا يبـلغ

القمة ، ولا يبلغ الحضيض حين يضعف • لكنه لن يندثر ولن يقضى عليه •

فالدين يظهر فى أول المدنيات ويبلغ أوجه بعد قليل ثم يعلو ويهبط • وهـذه الدورية فى تاريخ الفنون • الا أنها أطول وأبعد مدى وأقل تغييرا من دورية الفنون لأن النفس لا تمل العبادات — وهى وسيلة التعبير عن الايمان — كما تمل وسائل التعبير فى الفنون •• والدين كالفنون يبلغ القمة فى عهود الحكم الفردى • وتعلق رجاله بالسلطان أمر طبيعى •

الحيـاة الخارجيـة :

وهى عند المؤلف تشمل مظاهر النشاط الانسانى كلهـا بما فيها الفنون ، وأعمال النشاط الانتاجى الاقتصادى وأوجه النشاط الاجتماعى المختلفة • وأثر الزمن فى هذه الحياة الخارجية دورى • وتاريخها سلسلة متعاقبة من العلو والهبوط على اختلاف فى درجات كل منها •

« والدورية ليست غريبة عن القوانين البيولوجية ، فحيـاة النبات دورية صريحة • وكثير من حياة الحيوان وخاصـة الاناث دورية • وأصـل هـذه الدورية صفة كائنة فى المـادة الحيـة نفسـها » •

« هـذه المـادة لها صفتان هما قابليتها للتأثر بالعوامـل

الخارجية ، وقابليتها لمقاومة هذه العوامل • والتوازن الذى نراه فى المادة الحية ليس توازنا ثابتا وانما هو توازن قلق ينشأ من تعادل هاتين القوتين » •

« وهذه الدورية الثابتة فى أصل الحياة موجودة فى التاريخ • ومن آثارها ما يصح أن نسميه النبض التاريخى •• وتختلف هذه الدوريات فى مداها وقوتها • وهى كالذبذبات أو الأمواج تختلف سرعة وبطأ وعلوا وانخفاضا ، وهى مركبة بعضها فوق بعض ، فهناك دورة عامة قد تشمل الجزء الأكبر من العهد التاريخى كله ، وفى أثنائها دورات أصغر منها ، وفى أثناء هذه دورات أقل » •

وكما يرى المؤلف ان هذه الدورية هى أثر الزمن فى النشاط الانسانى ، فان العامل المحرك لها هو الملل • وهذا العامل يرجع أيضا الى أصول بيولوجية • لا نزاع فى أن المادة الحية تتأثر بالعوامل الخارجية وتستجيب لها الى حد ما • فاذا استمر عامل منها مدة طويلة أصاب المادة الحية منه التعب أو الملل فيصبح العامل أقل أثرا » •

وهكذا يجد المؤلف فى الملل قانونا عاما يفسر به حركة التاريخ الانسانى وظواهره الاقتصادية والاجتماعية • . . .

ويعلق الأستاذ محمود العالم على هذا التخطيط العام بأن

المؤلف انتهى اليه نتيجة فصله الزمن عن حركة الأشياء التاريخية مما أدى الى قصر حركة التاريخ البشرى على هـذا الشـكل المحدود الذى يسميه المؤلف بالدورية •

* أدرك المؤلف عجز مطلق الزمن وحده فى تفسير حركة التاريخ فلجأ الى عامل نفسى خالص هو الملل « ليجعل منه القوة المحركة للتاريخ ، الموجهة لمساراته » •

* وفى رأيه أيضا ان استفادة المؤلف بالبيولوجى لاتستقيم مع المفاهيم الجديدة لهذا العلم ، ولا تستفيد من حقائقه فى تحديد نظرة علمية سديدة •

(فلاشك ان الدورية صفة لكثير من الظواهر البيولوجية فهى صفة لكثير من الظواهر الحية فى النبات والحيوان والانسان ولبعض الظواهر الاجتماعية ، ولاشك كذلك ان الدورية ثمرة توازن قلق — على حد تعبير المؤلف « صفحة ١٦ » — بين عوامل داخلية وعوامل خارجية ، على ان المسألة ليست كما يرى المؤلف مجرد تعادل بين هذه العوامل ، وهنا نلمح أثر لنظريـة توفيق الحكيم ، انها هى فعل وتفاعل وامتصاص وبذل وهدم وبناء وتعويض واكتساب وصراع ونمو •• وهى عمليات متشابكة فى الكائن الحى •• ولكن المـؤلف يتجنب الاسـتفادة من هـذه العمليات الداخلية جميعا ، مكتفيا بظاهرة عامة هى الدورية التى

لا تبرز بوضوح قوانين الحركة الداخلية للظواهر الحيــة بقدر ما تقدم صفة عامة لهذه الظواهر) .

ورأى الخاص هو أن الدكتور كامل حسين قد قدم بنفسه الأساس العلمى الذى يدفعنا للاحتجاج على منهج تفسيره للتاريخ على أساس عاملى مطلق الزمن والملل وذلك فى كتاب (وحدة المعرفة) الذى نشر بعد ذلك بسنوات .

ففى حديثه عن التفكير والارادة وهما صفتان يتميز بهما الانسان على سائر الكائنات الحية يقول المؤلف عن المخ « وليست وظيفته الوحيدة أن يستقبل ويختزن . بل أن له حيــاة داخلية . وهناك فرق كبير بين أى جهاز الكترونى صناعى مهما عظم والمخ الانســانى ذلك ان تفاعلات الحياة فى الخـلايا تخـلق تيارات تسلك المسالك التى مهدتها لها الطبيعة أولا والتى مهدتها لها العوامل الخارجية ثانيا ثم هى تغير من هذه المسالك على قدر قوتها أو ضعفها وتوافقها أو اختلافها . وعلى قدر توافقها مع المسالك الداخلية التى يحدثها وجود الحياة فى خلايا المخ . هذه التفاعلات الجديدة تكون التفكير والارادة . وهى من عمل حياة الخلايا نفسها وهى تتأثر بالمسالك القديمة وتؤثر بدورها فى هذه المسالك » .

وهذا يعنى أن قوة التفكير والارادة لهما أثر على المسالك

الموروثة أو القديمة فى المخ أى أن الفكر والارادة هما عمليـة تفاعل بين الداخل والخارج وبنشوء الضمير قد أصبح لهما أخطر الأثر فى حياة الانسان وعلى هذا يصبح تفسير التاريخ الانسانى على أساس عوامل بيولوجية بحتة مرحلة سابقة تجاوزتها أفكار المؤلف نفسه فى كتاب « وحدة المعرفة » •

ولكن هذا كله لا يمنع من المضى فى تحليل هذا الكتاب حتى تتبين جيدا كل نتائج هذا المنهج وهى تتضح أكثر فى تطبيقه على التاريخ السياسى القومى الذى يقسمه المؤلف الى أربعـة عهود هى (صفحة ٥١ ــ ٥٢) :

١ ــ عهد تفوق الفرد على الجمـاعة ــ وفيه تخضـع الجماعة للفرد خضوعا تاما يقرب من العبـادة وفيه أيضا تنمو الأمة وتبلغ الحياة القومية أوجها ويسمى هذا بالعصر الذهبى •

وهو عصر لويس الرابع فى فرنسـا واليزابيث الأولى فى انجلترا وفردريك الأكبر فى ألمـانيا والقيصر بطرس الأول فى روسيا •

٢ ــ والعهد الثانى هو عهد تغلب الجماعة على الفرد ويتم هذا غالبا عن طريق الثورة كما حدث بالنسبة للثورة

الفرنسيـــة وثورة الانجليز على تشـــارلس الأول ، وكذلك الثورة الروسية ١٩١٧ ٠

٣ ــ وفى العهد الثالث يستعيد الفرد تفوقه على الجماعة ، ويكون ذلك عـــادة لفترة قصيرة وهو عهد نابليون وكروموبل وهتلر وستالين ٠

٤ ــ أما العهد الرابع فيتم فيه النصر الثانى للجماعة ٠ وهـــذا أيضا من آثار الدورية التاريخيـــة وهو عهد الجمهورية الثانية فى فرنسا وعهد الحياة البرلمـــانية فى انجلترا وهذا هو العهد الحاضر فى كل من ألمـــانيا والروســـيا ٠

« على أنه يلاحظ أن التاريخ لا يعود القهقرى ٠ وان غايته تغلب الجماعة على الفرد ٠ وانه حين يبلغ تاريخ أمة هذا العهد يصبح من المستحيل على الفرد أن يتغلب على الجماعة مرة ثانية ٠ لهذا يستطيع التاريخ أن يؤكد أن ظهور عظمـــاء الرجال الذين يتحكمون فى مستقبل أمتهم أصبح مستحيلا فى فرنســـا وانجلترا وأمريكا » ٠

ولا يملك الانســـان الا الاعجاب والتسليم بصحة هـــذا الاستنتاج الأخير ٠ فالتاريخ المعاصر يؤكد فعلا استحالة تحكم

الفرد فى مصير أى دولة من الدول الثلاثة التى ذكرها المؤلف سواء كانت فرنسا أو أمريكا أو انجلترا .

لكن هذا التطور الذى طرأ على حياة هذه الأمم لايمكن رده الى عامل مطلق الزمن وحده أو عامل الملل الذى يحرك هذه الدورية كما يقول المؤلف . كذلك لا يكفى هذين العاملين فى تفسير قيام وسقوط هذه النظم الاجتماعية أو العهود التاريخية كما يسميها المؤلف .

فالعهد الأول الخاص بتفوق الفرد المطلق على الجماعة هو عصر الاقطاع حين كان الملوك يحكمون فيه الشعوب بالحق الالهى المطلق . وتكون ظاهرة الاقطاع أو تلاشيها لا يمكن رده الى عامل واحد بعينه أو عاملين معا فقط كعاملى مطلق الزمن والملل . فهذا يعنى أن الظواهر الاجتماعية تتكون وتتلاشى تلقائيا أو قضاءا وقدرا . دون تدخل الارادة الانسانية كلية . وهـذا أمر يصعب تصديقه ، ولا تؤكده وقائع التاريخ .

فالتاريخ يثبت أن سقوط النظـام الاقطـاعى فى كل من انجلترا وفرنسا قد سبقه تحولات فكرية واجتماعية كبيرة وأهمها ظهور الحركة الانسانية ابان عصر النهضة التى قامت على أساس ان الانسان سيد مصيره وسيد الكون وطالبت بالفصـل التام بين السلطة الدينية والسلطة الدنيوية أى بين الكنيسة والدولة .

وعلى هـذا حطمت الأساس الأول لحق الحكم المطلق الذى كان يستند عليه الملوك .

كذلك كانت محاولات النبلاء فى الحصول على مزيد من السـلطة والنفوذ فى ادارة حـكم البـلاد وأعتقـد أن المـاجنا كارتا ١٢١٥ والثورة الانجليزية ١٦٤٨ بقيادة كرومويل لخير الأدلة على ذلك . وفى فرنسـا كانت هنـاك محـاولات متشابهة بالاضافة الى الحركة الفكرية التى بدآها روسو وانتظم فيها الكثيرون مثل مونتسكيو وفولتير وغيرهم ، والتى مهدت السبيل لانتشار الأفكار ، الثورية واندلاع الثورة الفرنسية فى نهاية الأمر التى قضت على هـذا النظام وأقامت حكم البرجوازية النامية على أنقاضه .

كل هذا يثبت ان هناك عوامل كثيرة موضوعية تتحكم فى حركة هذه الظواهر وان هذه العوامل الداخلية المتشابكة هى التى تجسـد القوانين الداخليـة للظواهر وهى المسئولة عن سيادتها أو تلاشيها فى زمن معين أو مكان معين .

كذلك تفسير هذه الظواهر على أساس العامل الاقتصادى فقط المتمثل فى طبيعة العلاقات الانتاجية أو فى « سيادة شكل من أشكال الانتاج » كما يفعل الأستاذ محمود العالم أمر لا يمكن التسليم به على اعتبار أنه العامل الوحيد والحاسم . لأن تعقد

الظواهر التاريخية على مدى التاريخ كله لا يتيح ذلك ، وهو ما أدى الى تعدد مناهج تفسير التاريخ دون أن يتمكن منهج واحد أو مدرسة واحدة من اكتشاف كل الأسرار أو القوانين التى تحكم حركته وتوجه مساره •

وبناء على هذا ، لا يمكن تجاهل الاختلاف الوظيفى بين الثورة الفرنسية والثورة الروسية ووضعهما فى مستوى واحد وفى دورة تاريخية واحدة كما فعل الدكتور كامل حسين •

فوظيفـة الثورة أو أهدافهـا تكون دائما من العوامـل الداخلية التى تحدد وسائل هـذه الثورة وشكلها • وهو أمر يرفضـه الدكتور كامل حسين ضمن رفضـه لمذهب الغائيـة الفكرية الذى يرفض القول بوجود غاية لكل نظام تؤدى الى تحديد الوسائل اللازمه لقيامه ، ويصر على أن النظـام هو الذى يؤدى بتطوره الطبيعى الى وجود الغاية • وليست الغاية هى التى توجده •

ولعله فى نطاق المبدأ يعترف للثورات بغايات حين يقول فى (صفحة ٥٧) •• « ونجاح الثورات يتعلق بزمن وقوعها ، وموقع أغراضها من تاريخ الأمة التى تقع فيها ، وتاريخ العصر الذى تقوم فيه • فاذا وافق غرضها تاريخ الأمة كان نجاحها محققا • واذا حدث وكان ذلك موافقا لروح العصر كان نجاحها أتم وأثرها

أبقى » • فهو لا يرفض الغاية نهائيا وانما يرفض أسبقية هـذه الغاية أو فرضها مسبقا للثورة قبل أن تتحقق •

والواقع ان الغايات تكون استجابة لمطـالب شعبية ملحة أو تحديات تاريخية وهذا ما يجعل آمر نجاحها ميسورا •

الا ان الدكتور كامل حسين لا يفرق بين طبيعة الثورات وطبيعه الحروب قائلا « الثورات تشبه الحروب فى طبيعتها وفى آسبابها ، وظروف نجاحها او اخفاقها • ولا يفرق بينها الا ان الثورات حروب أهليه ، والحروب ثورات دوليه » • وان كان يحمد له رفضه اعتبار « الحروب آمر طبيعى فى الانسان » والذين يقولون بهذا « يلتمسون الحجج فى ما يدعونه من آن تنـازع البقاء وبقاء الأصلح قانون طبيعى فى حياة الحيوان •• وهـذا خطأ •• فان كان التفوق أمرا طبيعيا فان بقاء امتيازات التفوق أمر غير طبيعى • والقانون البيولوجى الذى يقول بتنازع البقاء ليس فى الواقع صوابا » •

وقديما قامت الحروب الاستعمارية للحصول على امتيازات مستباحة ليست من حق أو نصيب أحد من الناس •• ولم يعد هذا سببا من أسـباب الحروب الحديثة • انما تقوم الحروب الحديثة حين يكون هنـاك تناقض فى الحياة الدولية يجعل بعض الدول متمتعة من غير حق ، وغيرها محرومة من غير حق ، ومن أسبابها

اختلاف تاريخ أمتين اختلافا جوهريا • فتكون احداهما فتية قوية تاريخها فى صعود ، وأخرى صاحبة امتيازات قديمة وتاريخها فى دور الجزر • هذه الحال هى التى أدت الى حرب السبعين والحربين العالميتين •

ومن هذا ينتهى المؤلف الى أن التاريخ الحديث سينتهى الى زوال الامتيازات من أى نوع • والنتيجه المحتومه للحروب الحديثة هى القضاء على كل لون من الوان الامتيازات ، واثر انتصار بريطانيا فى الحربين دليل هده الحقيقة الواضحة •

الحرب الثالثة :

ويرجح المؤلف وقوع الحرب الثالثة على أساس تاريخى هو « أن الحروب تتسع دائرتها المرة بعد المرة ، وتاريخها ينفصه أن تقع حرب بين نصفى العالم » • وذلك لان الدول الكبرى لاتزال تتمتع بامتيازات لا تريد ان تتنازل عنها طواعية على الرغم من زوال التفوق الذى تقوم عليه • ولا يمنع قيام هذه الحرب الا شىء واحد هو ازدياد قوة الجماهير ، وقدرتهم على التفكير واحتمال عدم خضوعهم لقادتهم حين يؤمرون ان يقتلوا ويقتلوا • « على انه اذ لم تقع هذه الحرب فى عشر سنوات فسيكون من شان عوامل منعها ان تتغلب فلا تقع حرب عالمية أبدا » •

وهى نبوءة صادقة حتى الآن • فقد مضى ربع قرن أو يزيد

على صدورها عام ١٩٥٥ وهو تاريخ نشر الكتــاب ، ولم تقع الحرب العالمية وأعتقد انّ أسباب منعها بدأت تتغلب فعلا فى ظل الوفاق الدولى السائد الآن بين القوتين الكبيرتين •

ثالثا ــ تاريخ الحيــاة العقلية :

وهى عند المؤلف تتمثل فى الفكر والعلوم وتتعلق بما يمكن البرهــان عليه عقلا • ولا يعترى المــادة الحيــة منهــا التعب أو الملل • وهى لهذا أكثر الأشياء تأثرا بالزمن • وأثر الزمن فيها انه يزيدها نموا على الدوام • وهى ليست خاضعــة للمل وهو أصل الدورية •

والحياة العقلية أهم ظواهر الحيــاة فى المدنيات • وهى دائمة النمو ، فكان على المدنيات أن يكون نموها مطردا لا نهاية له • ولكن هــذا يخالف الواقع • فلكل مدنية نهاية • والواقع ان المدنيات ــ وقوامها طريقة تفكيرها ، وأســلوب بحثهــا ، وموضوع درسها ــ لا تنقرض ولا تموت ولا تضعف بعد قوة وانما تقف • والسبب ان لكل طريقــة تفكير حداً لا تستطيع بعده أن تزيد من علم الناس • فنراهم عند ذلك ينصرفون عنها يبحثون عن طريقة تفكير أخرى تفتح لهم آفاقا جديدة • كذلك كانت نهاية المدنية اليونانية • فقد وقفت عندما أصبحت طريقتها فى العلم ، وهى الطريقة الاستنتاجية ، عاجزة عن ان تزيد فى علوم الناس •

ولا ينطبق هذا على المدنية الغربية الذى يظن البعض انها دخلت دور الانحطاط فالمدنية الغربية ــ وهى تحليلية تجريبية ــ ستستمر مادامت قادرة على زيادة علمنا .. ولن تقف الا حين تصبح فى حاجة الى وسيلة أخرى غير التحليل والتجريب لزيادة علمنا بأسرار الكون (ص ٦٤) .

ولاشك ان الحياة العقلية هى أهم ظواهر الحياة فى المدنيات ، ولكن هذا لا ينفى تأثرها بعوامل أخرى غير مطلق الزمن .

فالأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية تؤثر فى توجيه الحياة العقلية أيضا . وتوقف مدنية هو نتيجة لكل هذه المؤثرات التى تؤدى الى انصراف الناس عن طريقة التفكير الخاصة بهذه المدنية .

العلم ومستقبل الانسان :

والذى يقرأ هذا الكتاب تملأ نفسه روح الثقة والتفاؤل بمستقبل العلم ومستقبل الانسان . فالمؤلف يؤكد أن تقدم العلم يؤدى الى زيادة كل قوة فى الانسان زيادة تمحو الفروق بين الأفراد والأمم ، حتى الذكاء أوشك العلم أن يقضى على امتيازاته بين الأفراد . فالتكنولوجيا جعلت ضعاف الذكاء قادرين على مجاراة الأذكياء فى دقة المشاهدات وقياسها . وبهذا يؤدى العلم

الى المساواة بين الناس • ويتأكد ايمانه بهذا المستقبل فى تحليله للنظم السياسية المختلفة •

الديمقراطيــة والشــيوعية :

وهو يقرر انه ليس فى عالم السياسة أخطر وأجدر بالبحث من هذين المبدأين والنظم القائمة عليهما • وهما يقفان وجهـا لوجه وقد يقع بينهما صراع لا ينجو منه غالب ولا مغلوب •

وهو يرى أن مبادىء الشيوعية خير من تاريخها وآراؤها خير من أعمالها • أما الديمقراطيــة فتاريخها خير من مبادئهـا التى لاتزال تعترف بامتيــازات الفروق بين النــاس • بعكس الشيوعية التى تدعو الى القضاء على الامتيازات الطبقيــة على أسس علمية ثابتة يحتمها التاريخ • لكن التطور التاريخى فى رأيه يثبت ان النظريات الاجتماعية والاقتصادية فى الشيوعية تقدمية بينما النظــام السياسى للشيوعية رجعى وينتهى من المقارنة بينها الى الرأى التالى :

« فاذا كانت كفة الشيوعية راجحة فى الاجتماع والاقتصاد من ناحيــة صــواب المذهب ، فان الديمقراطية راجحة فيهما من الناحية العملية • أما من ناحية النظام السياسى فكفة الديمقراطية راجحة تاريخيا من غير شك رجحانا يحقق لها النجاح » •

ومن هذا تتبين انه ليبرالى يؤيد النظام الديمقراطى الذى يحقق العدالة الاجتماعية والمساواة السياسية فى آن واحد .

كلمة أخيرة :

يخيل الى بعد أن فرغت من هذا التحليل أن الدكتور محمد كامل حسين ــ رحمه الله ــ قد أدرك قصور منهج التحليل البيولوجى القائم على مطلق الزمن والملل فى توجيه دورات التاريخ ، وان بعض المآخذ التى ذكرت قد صححها هو فى كتاب « وحدة المعرفة » الذى صدر على ما أعتقد بعد ذلك بسنوات . كما يؤيد ذلك الرأى عندى ما أخبرنى به الدكتور محمد جلال موسى ابن أخته من أنه جمع نسخ كتاب « التحليل البيولوجى » من المكتبات قبل توزيعه [1] . لكن هذا لا يقلل من أهمية الكتاب كمحاولة فريدة فى اللغة العربية لاكتشاف منهج لتفسير التاريخ الانسانى ، كما أن اختلافنا مع المؤلف لايعنى انكار هذا المنهج كلية أو انكار فضل المؤلف فى لفت اهتمام المفكرين الى العامل البيولوجى ودوره فى حركة التاريخ .

كذلك فان قراءة هذا الكتاب والتمعن فيه كفيلة بأن

---

(1) وربما ترجع عملية جمع الكتاب من التداول الى خشية المؤلف من اساءة تفسير بعض أفكاره خصوصا ما يتعلق بهجومه الشديد على دعوات الوطنية والقومية المتطرفة ، وكانت القيادة الثورية قد أخذت حينذاك ترفع شعار القومية العربية وتشدد عليه .

تحرك كل قوى الفكر والخيال فى القارىء • فهو فى رأى — رغم صغر حجمه — بعد موسوعة معارف علمية وفلسفية وسياسية فى آن واحد تجعل من الاطلاع عليه متعة ، ومن الالمام به ثروة فكرية وعلمية لا تجتمع فى مئات من الكتب المنشورة فى ساحتنا الآن •

أضف الى ذلك قدرة هذا العالم الفيلسوف فى ترتيب أفكاره وعقد المقارنات وابراز الفروق الدقيقة بين المذاهب والأفكار مما يجعل مراجعته من وقت الى آخر رياضة عقلية تزيد من نشاط الفكر وتدفعه الى أرحب الآفاق •

منهج جديد لوحدة المعرفة

وكتاب « وحدة المعرفة » للدكتور محمد كامل حسين ، يمثل محاولة طموحة وجريئة لاستنباط منهج علمى جديد لتفسير تطور المعرفة الانسانية وحل معضلاتها .. وذلك بكشف الترتيب الطبيعى للقوانين الكونية التى تحتم هذه الوحدة واستقرارها .

وهو كتاب فريد وخطير فى آن واحد . ودليل فرديته انه أول كتاب عربى تقريبا يتصدى لوضع نظرية للمعرفة فى العصر الحديث ، مستندا فى ذلك الى أحدث ما أنجزته العلوم الطبيعية من اكتشافات وما توصلت اليه من حقائق تأكد ثبوتها بشكل قاطع . وهو خطير لأنه يدخل الى ميدان الفكر الانسانى مسلحا بهذا المنهج العلمى الجديد ، بل انه يتصدى لهدم كثير من الأبنية والمفاهيم الفكرية والفلسفية والدينية التى لا تطابق ما اكتشفه العلم من حقائق الكون .

وطموح هذا المنهج لا يقف عند حد ، فهو يسعى لاكتشاف الأصل الطبيعى للأخلاق والضمير والفنون والحب ، وكذلك التفسير الطبيعى لاختلاف الأديان .

وربما كانت هذه المسألة من الأسباب التى أدت الى اغفال هذا الكتاب وتجاهل أمره . فرغم أهميته الشديدة بالنسبة لمسار الفكر العربى المعاصر فلم يكتب عنه أحد من المفكرين أو النقاد . وقد يعلل هذا الموقف بصعوبة هذا الكتاب نتيجة تعمقه فى

مسائل وتفاصيل علمية بحتة لا تستهوى الكثيرين من كتاب الصحف والمجلات خصوصا وأن البحث يتطرق الى مسائل فلسفية متشابكة لا يصبر عليها الا ذو الاهتمامات العامة المتعمقة أيضا •

أما بالنسبة لى ، فغاية جهدى أن أوفق فى تحليل وعرض هذه النظرية الفكرية الجديدة بصورة تجعلها أيسر فهما وأكثر قبولا لدى أمثالى من عامة المثقفين •

ولذلك على أساس من التسليم المطلق بصحة ما أورده المؤلف من حقائق علمية دقيقة لا أملك ـ بحكم تخصصى الأدبى واهتماماتى العلمية العامة ـ ما يؤهلنى لمناقشتها أو التشكيك فيها • لكن هذا لا يمنع من مناقشة النتائج الفكرية المترتبة على هذه الحقائق كلما لزم الأمر • وحسبى هذا ، فالأهم عندى هو أن ألم بمنهج هذا المفكر العظيم وفلسفته كما تتبلور وتتضح فى هذا الكتاب • وهو أمر ضرورى فى سبيل تفهم أعماله الأخرى • فلنبدأ به ، وعلينا بالصبر مع بعض التفاصيل اللازمة لتحقيق هذه الغاية •

هرم مقلوب الوضع :

فالكاتب يرى ان صورة المعرفة الانسانية الآن مضطربة مفككة ، بها كثير من الشوائب • لأن العقل حين أخذ نفسه

بالبحث فى أسرار هذا العالم لم يبدأ حيث يجب البدء ، ولم يقدر لعلمه أن ينمو نموا طبيعيا ، ولم يقدر له أن يلم بأشتات هـذا العلم فيراه جملة واحدة .

« ومدار البحث فى هذه الرسالة غايته الجمع بين فروع المعرفة جميعا بما يبين لنا الصورة الكاملة للمعرفة كلها . عند ذلك تتبين وحدة التفكير ووحدة النظم الكونيـة ويكون علينا اذا اتسقت لنا الصورة الكاملة ، ان نسقط من المعرفة كل ما لا يتفق وهذه الصور » .

فالمعرفة قائمة على هرم مقلوب الوضع يتناقض مع الترتيب الطبيعى للقوانين الكونية الذى يبدأ بقوانين المـادة ، ثم تتلو ذلك قوانين الحياة وهى أكثر تعقيدا ورقيا . ثم تأتى بعدها قوانين الانسان وهى أخص وأرقى وأكثر تعقيدا من قوانين الحياة . ولو أن المعرفة بدأت على هـذا النحو ، وتقدمت على هـذا الترتيب ، ما أصابها من الاضطراب ما نراه اليوم . ولكنها بدأت بالانسانيات ثم أتبعتها بعلوم الحياة ثم بالمـاديات . النظـام الكونى يبدأ من أسفل الى أعلى ، ونظام المعرفة بدأ من أعلى الى أسفل ومن هنا كان الاختلاف » .

وسبب هـذا الاختـلاف ان الكشف عن قوانين المـادة يحتاج الى أجهزة دقيقة معقدة لم تكن فى متناول الانسان عند

أول عهده بالتفكير .. ولذلك خفيت قوانين المـادة حتى عصرنا هذا . أما جهاز الكشف عن الانسانيات فهو التفكير الخالص . وكان البرهان القاطع على صواب أى أمر من الأمور هو مطابقته لنظام العقل . ومن ثم أصبح المنطق معيار الحقيقـة . وحسب المفكرون ان كل ما هو منطقى يكون بهذا الوصف وحده حقيقة مطابقة للواقع . وهـذا خطـأ ، لأن « التفكير الحديث يرى أن المذهب الحق هو الذى يتفق والقوانين الطبيعيـة الأخرى المـادية والحيوية والانسانية » .

والمؤلف يثق ثقة كاملة بالعلم الحديث وما حققه من نتائج ، بل أن ثقته تمـلأنا بالأمل فى قدرة هـذا العـلم على تخليص الانسان من بعض أزماته الفكرية وما يترتب عليها من تعصب أو غرور ومن شـك أو اهتزاز لأنه سيقدم لنا اليقين .

ولاشك أن اتفاق البشر على حقائق الفكر والعلم سـوف يقرب بينهم ويزيد من فرص التفاهم والصداقة . وتتضح ثقـة المؤلف بالعلم وبنتائجه حين يقول :

« والاصلاح المنهجى الذى ندعو اليه يقوم على انه حان الوقت الذى نستطيع فيه أن نغير من وضع الهرم المقلوب فنجعل المعرفة هرما قائما على أساس الطبيعيات وهى أساس ثابت ، قائم على البرهـان والتجربة ، فيه تكون القضـايا عامة غير قابلة

للاستثناء ، وفيه يكون الواقع معروفا لا يحتمل الشك ولا يتسع للآراء المتضـــاربة ، وفيه يكون الواقع والمعقول شيئا واحـــدا لا يقبل الخلاف ثم نقيم على هـــذا الأساس علوم الحياة على نسقه وأسلوبه ، فيتحدد بذلك المذهب الحق من بين المذاهب الحيوية ثم نقيم على هذا كله علوم الانسانيات متسقة فى نظامهـــا العام مع علوم الحياة فيتبين لنا المذهب الحق من بين المذاهب الانسانية المتعددة » •

والآن وقد اتضح لنا منهج الكتاب وغايته ، علينا أن نتتبع فكر المؤلف فى تسلسله حتى يتسنى لنا فهم هذا المنهج وما يترتب عليه • وكامل حسين يبدأ بالحديث عن المعرفة فيقول « فى الكون نظام ، وفى العقل نظـــام ، والمعرفة هى مطابقة هذين النظامين • والنظامان من معدن واحد ، والمطابقة بينهما ممكنة لمـــا فيهما من تشابه • ولو لم يكونا متشابهين لاستحالت المعرفة •• وتشابـــه النظامين الكونى والعقلى هو جوهر امكان المعرفة » •

والعقل هو جهاز التفكير فى الانسان • وهو يتميز بثلاث خصـــائص غالية فيه هى ، انه لا يطيق الفوضى ، ولا يحتمـــل الفراغ ، ولا غنى له عن تجسيم المعنويات • وخوفه من الفوضى دفعه الى تناول كل ما يعرض له من أمور بالتنظيم والترتيب •

بل أن المؤلف يذهب الى أن هــذه القوة التنظيمية « غريزية » فى العقل • يدل على ذلك ما نراه من النظام فى اللغة • واللغة عمل عقلى محض وهى تنشأ منظمة ، وقواعدها منطقية •

والعقل لا يحتمل الفراغ ، وليس معنى هــذا انه لا يعترف بجهله أشياء بعينها، وانما يعنى ذلك أن العقل يحــاول أبدا أن يكون علمه كافيا لتفسير كل ما غمض عليه • والاتزان العقلى لا يتم للانسان الا اذا كان علمه مهما قل يملأ فراغ عقله كله • لهذا كان حتما أن تكون المذاهب الدينية والفلسفية كاملة تحاول كلها التفسير التام لكل ما يعرض للانسان •

وتجسيم المعنويات يدفعه الى تمثيل المعنويات تمثيلا يجعلها فى متناول حواسنا العادية ، ومن هنا كانت رغبة الناس فى تمثيل الايمان بالعبادات ومن هنا نشأت رغبته فى تصــوير الجمال ، والتغنى بالحب ، واختراع الموسيقى كل ذلك لابراز معنويات كامنة فى النفس فى صور حسية •

« هــذه الصفات الثلاث ثابتة فى العقل ، وهى مصــدر قوته ، الا انه حفل بها كثيرا •• فحين تكون الحقائق التى لدى العقل قليلة نراه يضطر الى تنظيم علمــه وملء فراغه وتجسيم معنوياته قسرا مسرفا فى ذلك على نفسه وعلى الحق•وهو فىذلك مسبوق بقوة قاهرة تجعله لا يستقر حتى يجد نظاما يرتاح اليه ،

فان وجد النظام الحق كان خيرا ، وان لم يوجد فلا مانع من اختراع نظم مصطنعة لا تقوم على أساس من الواقع ، ذلك أصل الخرافـات » •

مـذاهب التفكير :

ومذاهب التفكير الكبرى نوعان ، الأول خرافى علمى ، والثانى فلسفى دينى • الأول موضـوعه ربط الأشـياء بعضها ببعض ، وكشف العلاقات بين الأسـباب والمسببات ، حتى اذا بلغت العلاقات حد يجعلها ذات نتائج مطردة أصبحت الخرافات علما ، والثانى هو « المذهب الفلسفى الدينى ، وهو مذهب غائى شامل ، يبدأ بأواخر الأمور ، ويفسرها تفسيرا كاملا ، وهو مذهب يضيق بالتفاصيل ، ويزعجه البحث الدقيق فى ما هو واقع فعلا ، وهو يعد قضاياه حقا مطلقا • فاذا وافقها الواقع فالواقع صواب وان خالفها فالواقع خطـأ الى أن يصوبه التأويل ومن أثار هذا المذهب الدين والاخلاق والفلسفة والاجتماع » •

ولابد فى كل مذهب من هذه المذاهب من اثبات الحقيقة بنوع من أنواع البراهين • والحقيقة هى وضع كل ظاهرة مادية كانت أو معنوية موضعها من النظام الكونى • واذا كان العقل هو الوسيلة التى توضع بها الظواهر موضعها فلابد له من طريقة أو برهان لاثبات الحقيقة •

أما البرهـــان فى المذهب الخرافى العـــلمى فهو يقوم على الاطراد وعلى أن العلاقـــة بين موضـــوعات البحث فيه يمـــكن اخضاعها لنظام رياضى ثابت حتى اذا أصبحت العلاقات منظمة ثابتـــة خاضعة للتجربـــة والحساب كان ذلك آخر الخرافـــات وأول العلم •

أما التفكير الدينى فلم يهتد الانسان بعد الى برهان فيه مقطوع بصحته ، ومقياس الحق فيه الالهام والشعور النفسى بأن ما يعتقده المرء هو الصـــواب • أما الفلاسفه فالبرهان عندهم هو مطابقة أمر ما للمنطق • والمذاهب الفلسفية الكاملة كثيرة ، كل منها منطقى لا تناقض فيه ، ومع ذلك فانها لايمكن أن تكون كلها حقيقة •

من هذا يصل المؤلف الى انه أصبح لزاما علينا أن نجد المعايير التى تمحص بهـــا الحقيقة فى أمور العقيـــدة والضـــمير والاخلاق والجمال والحب ، وخاصة بعد أن ثبت ان البراهين النفسية والمنطقية لا تكفى لتحديد ما هو واقع فعلا •

النظـــام المقترح :

المعيار الذى يقاس به الحق فى المعنويات هو اتساق النظام المقترح مع النظم الكونية التى ثبت صوابها ثبوتا علميا والتى عرف نظامها رياضيا • والأصل فى ذلك أن الكون له نظام واحد

أوله المـاديات وآخره ـ فيما يتعلق بالانسان ـ المعنويات •
فاذا استقام لنا ان نجد هـذا النظام الشامل الذى تتبين فيه أوجه التقارب بين المـاديات والمعنويات فان اتساق هذا النظام يصبح معيار الحقيقة فى المعنويات •

وعقدة العقد فى المعرفة هى ايجاد الأساس المـادى للأخلاق والضمير ، فان بينهما فجوة لم يهتد أحد بعد الى عبورها ، ولابد من الكشف عن هـذا الأساس قبل الحديث عن وحدة المعرفة •

« وانى أعتقد ان علمنا بالمـاديات والحياة بلغ الحد الذى نستطيع معه أن نقيم هذا النظام الجديد للمعرفة •• ثم نختار من بين المذاهب الفلسفية والدينية ما يتفق وهـذا النظام • بهذا وحده يتبين لنا وجـه الحق فى ما ليس من طبيعتـه ان يثبت بالبرهان العلمى » •

هـدم الآراء القديمـة :

بعد هذا ينطلق المؤلف فى جرأة وثبات لهدم بعض الأراء القديمة التى يرى أنها تقف فى طريق مذهبه الجديد ، مثل العلة الغائيـة والتفكير الثنائى وفهمنـا للزمن ، وتصـورنا للحقيقة والسببية ، تمهيدا لاقامة النظام الجديد •

والعلة الغائية مذهب يقوم على تحديد غايات بعينها تراد لذاتها ، على ان هذه الغايات تؤدى الى تهيئة الأسباب التى تنتهى اليها . وذان الغاية نخلق الوسائل التى تؤدى اليها . « فرجال الدين يرون أن الله بقدرته يعمل على أن يكون العالم كله وسيلة لغايات بعينها هى عندهم تمجيده تعالى وعمل الخير . أما علماء الانسانية فقد افترضوا ان قوة النظم هى التى تعمل على تهيئة الأسباب لبلوغ غاية هى عندهم خير المجتمع من أخلاق وفضائل. وحسب العلماء ان قوة الحياة هى التى تعمل على بلوغ غايات هى عندهم بقاء الجنس ومواءمة التركيب الجسمى للبيئة . وحسب بعضهم ان الوظيفة غرض يعمل على أن يكون العضو مؤديا الى هذه الغاية كأنهم يرون أن الانسان وقف منتصبا على قدميه فتغير تركيب القدم ولا يرون أن القدم تغير أولا فوقف الانسان عليه ... وأكبر الملحدين من العلماء الذى يتحدث عن الطبيعة على أنها القوة المنظمة للكون والمؤمن الذى يرى ان الله هو المنظم له ، كلاهما يدين بمذهب العلة الغائية .

ومنشأ هذا المذهب هو تصور الانسان انه مركز الكون وان كل شىء خلق من أجله .

ولابد من هدم هذا المذهب لأنه من ناحية المنطق خلط ومن ناحية الفلسفة عقيم ومن الناحية العلمية خطأ .وبالنسبة للمستقبل الفكرى عقبة تحول دون فهم الكون فهما عقليا كاملا .

ليس للعالم غايات خلقت القوانين من أجل تحقيقها ..
انما يقوم نظام الكون على سلسلة من القوانين أولها بسيط
ثم تزداد تعقيدا حتى تبلغ التعقيد الذى نراه فى الانسان وسر
النظام الذى نراه فيه وسر التوافق بين الأسباب والغايات يرجع
الى ان هذه القوانين تؤدى بطبيعتها الى هذه الغايات .

وبعد أن يفرغ الدكتور كامل حسين من هدم هذا المذهب
الخطير يتجه الى مذهب آخر لا يقل خطورة بالنسبة للتفكير
الانسانى والتفكير الدينى بالذات هو مذهب التفكير الثنائى
الذى يؤدى الى المقابلة بين الخير والشر والروح والجسد وبين
الصواب والخطأ . فالفلاسفة يتحدثون عن الخطأ والصواب
على انهما نقيضان ، ورجال الدين يتحدثون الحديث نفسه عن
الخير والشر . والعقل يرتاح لهذا التقسيم ظنا منه انه يلم
بكل شىء .

وأصل هذا التفكير ان الانسان جعل نفسه مركز الكون ثم
« وضع الأشياء عن يمينه أو يساره وأصبح يقيس الأمور بنفسه
ويرتبها ترتيبا هو محوره . فالخير هو ما يعود عليه بالخير والشر
هو ما يعود عليه بالشر . مثل ذلك مثل علم الفلك حين كان
علماؤه يعتقدون ان الأرض مركز العالم » .

ولم يصبح الفلك علما الا حين تخلص من اعتبار الأرض

مركز العالم • ولن يستقيم التفكير حتى نخلص من « اعتبار الانسان مقياسا تقاس به الأمور وحتى نقلع عن تنظيم الأشـــياء تنظيما يقوم على علاقتها بالانسان » •

والتفكير الثنائى كما يقول المؤلف لا حقيقة له فى العلوم الطبيعية • « فالحرارة والبرودة ـــ ومقياسهما الانسان ـــ أصبحا درجات مختلفة من سرعة حركة الجزيئات فى الجسم وأصبحت تقاس دون الرجوع الى ما يحسه الانسان ، تبدأ من ٢٧٣° تحت الصفر وترتفع حتى تبلغ آلاف الدرجات • وليس لدرجة حرارة الانســـان أى مغزى علمى خاص يجعل التقسيم القائم عليهـــا ذا قيمة علمية » •

كذلك الأمر بالنسبة للألوان • ما هى حقيقة اللون • هـــل الأحمر أحمر لأننا نراه كذلك ؟ وهل الحمرة توجد اذا لم توجد العين التى تراها • « وقد ثبت أن اللون موجة ذات طول خاص يمكن قياسه بغير العين » ، كذلك فى الكيمياء « قسمت الأشياء الى حمضية وقلوية ثم ثبت أن هذه الصفات ترجع الى تركيز أيونات الأيدروجين وهو أمر متصل لا داعى لتقسيمه •

فى الفلســفة والدين :

من هذا يتبين انه عندما نعرف حقيقة الأشياء وقوانينها تزول بعد ذلك أكثر مظاهر التفكير الثنائى ، هذا واضح فى العلوم ،

ولكن الأمر فى الفلسفة والدين أكثر تعقيدا • وان تكن هنـاك دلائل على أن التفكير الثنائى فيهما لن يلبث أن يقضى عليه متى عرفت طبيعة الخطـأ والصواب وطبيعة الخير والشر • « فالخير والشر متناقضان ما دام البحث متعلق بالانسان ، ولكنهما من حيث انهما حقيقة كونية فلا يكونان الا درجـات لشيء واحـد سنعرفه عندما يتم علمنا بالنفس وقد نبلغ من ذلك حد مقياس الخير والشر على انهما درجات مختلفة لتأثير واحد على النفس البشريـة » •

وبصرف النظر عما قد يحدثه الأمر من زلزلة فى كثير من العقائد الفلسفية والدينية التى تقوم على هذه الثنائية ، فان القول بزوال التناقض بين الخير والشر أمر يصعب تصوره • ذلك فى رأى لأن الانسان حتى لو اسقطنا من حسابنا اعتبـاره مركز الكون أو مركز العالم كما يريد المؤلف فان نظريته هـذه التى تقوم على التطور الطبيعى تضـع الانسان فى قمة الكائنات الموجودة فى الكون اذ يتميز عليها بالعقل والضمير •

وبالتالى فلا مفر من بقائه موضع الاهتمام الأول والأهم بالنسبة لباقى الكائنات الحية • يترتب على هـذا بقاء أساس التفرقة بين الخير والشر ، اللذين يعتبرهما المؤلف من « الغرائز البشرية » فى كتابه « التحليل البيولوجى للتاريخ » •

وصعوبة التعريف المطلق لكلمتى الخير والشر على اعتبار انهما حقائق كونية يأتى من الايمـــان بحقيقة أخرى وهى انه مهما تقدمت العلوم وزادت معرفتنا بالنفس الانسانية ، فسوف نظل أمام مشكلة أزلية وهى أن النفس البشرية ليست شيئا واحدا أو فردا بعينـــه بل هى نفوس متعددة وشعوب متفرقة متناحرة ، ومن ثم سيظل للخير معنى وللشر معنى آخر بالنسبة لكل فرد أو لكل جماعة .

فاذا أمكن للعلوم الطبيعية أن تقضى على ثنائية التفكير فيما يختص بحقيقة الأشياء المتعلقة بالحواس كالحرارة والبرودة ودرجات اللون لأنه اكتشفت أجهزة لقياس هـــذه الأشياء بمعزل عن الانسان ، فانه يستحيل اكتشاف أجهزة لقياس الخير والشر خارج الانسان فردا أو جماعة . ولايمكن ذلك الا فى حالة واحدة مستبعدة وهى حين يتحد البشر جميعا فى وحدة واحدة بعد أن تزول من بينهم أسباب الخصـــومة والحرب وتسقط أمامهم كل الحواجز الطبقية وتنمحى الاختلافات الدينية والقومية . حينئذ تتشابه مشاعرهم الى حد التطـــابق ويصبح بمقدور الجميع أن ينظروا للأمور بمنظـــار واحد . فيسهل عليهم قياس الخير والشر من وجهـــة نظر علميـــة محايدة فيبدوان درجات لشىء واحد أو يبدو كل منهما محـــددا تحديدا قاطعـــا كميكروب الســـل

أو التيفود مثلا • وحينئذ تنهار نظرية المؤلف أو تدفع بالفكر الى نظرية جديدة •

وكما حاول الدكتور كامل حسين تجريد الخير والشر فهو يفعل الشيء نفسه مع الزمن • وهو يقر بأن الانسان عجز عن « ادراك حقيقة الزمن وطبيعته ادراكا مباشرا جعل للمعرفة حدا لن تستطيع أن تتعداه •• والزمن حقيقة لا ريب فيها ولكنها أكثر الأمور غموضا على العقل • وهو يدرك بأثره فى الأشياء • وهذا هو الزمن التاريخى • وهو يختلف عن الزمن الرياضى والزمن الكونى » •

والمؤلف يرى انه « من الخطأ أن تتصور الزمن على أنه من عوامل التطور ، ولعل التطور عملية تركيبية خاصة بما ركب فى الكائنات الحية من صفات » • ومن الاخطاء المترتبة على ذلك تحديد عمر الكون تحديدا زمنيا » •• « ويكاد يكون من المؤكد ان الكون كله لا يخضع لقانون ما ، وليس للزمن أثر عليه • والحديث عن عمره خطأ عقلى واضح » •

وفكرة تجريد الزمن أو رؤيته كشىء مطلق مستقل عن الانسان والأحداث تسيطر على فكر المؤلف فى كتاب « التحليل البيولوجى للتاريخ » وقد أدت الى نتائج لايمكن قبولها أو التسليم بصحتها وقد تبين ذلك عند الكلام عن هذا الكتاب •

أما الآن فحسبنا أن نركز على موضـــوعنا . ولعله آن الأوان لنســـأل :

ما هى الحقيقـــة ؟

لم يقدر الانسان عظم ما أقدم عليه حين بدأ بحثه عن الحقيقة، ولم يدرك أن اختلاف الحقيقة فى مذاهب التفكير المختلفة يثير الشك فيها كلها .. مهما يكن من صوابها فى بعض وجوهها .

فالحقيقة فى التفكير الدينى هى ما أنزل الله على عباده ، وما هداهم اليه ، وهو فرض عظيم له من شموله وقوته وكماله ما ينزع سلاح معارضيه .. ولذلك قبله الناس كافة فى عهود من التفكير كان فيها وحده موضع الثقة . ولكن هذا الكمال نفسه خلق فيه هنات لم تلبث أن ظهرت لدى المفكرين . وقد حملت هذه الهنات الكثيرين على الشـــك فى الحقيقة كما يصـــورها الدين فأنكروها كلها على ما يكون فيها من صـــواب . وأكبر هذه الهنات ان التفكير الدينى لم يستطع تعيين صفات الذات العلية العليمة القديرة الا بما هو انسانى ، وانه لا يعبأ بتفاصيل النظام الكونى ولم يفسرها . وانه لم يبين لم احتاج تمجيد الله الى هـــذا التعقيد البالغ فى الكون وكان يصح أن يتحقق بما هو أبسط وأوضح . والحقيقة عند المؤمنين تنحصر فى ارادة الله ثم

حددوا ارادته بما أراده سبحانه فعلا . هذا كله دفع الناس الى التماس الحقيقة فى نظام آخر هو الفلسفة .

وحسب الفلاسفة أن الحقيقة شيء محدد يحجبه عنا نقص علمنا ، وضعف جهاز العقل الذى نبحث به عنها ، وخيل اليهم اننا اذا زاد علمنا وتحسن جهاز التفكير عندنا فاننا نبلغ الحقيقة العليا التى اذا بلغناها تكشفت لنا أسرار الكون فنقرأها عند ذلك كأنها كتاب مفتوح . وفى رأى كامل حسين ان هــذا أثر من آثار التفكير الذى يبدأ بأواخر الأمور والمعقد منها ، ولم يخلص التفكير الفلسفى من هــذا العيب حتى بعد أن بدأت نظريــة التحليل الديكارتى . فهى أيضا تبدأ بالمعقدات وتخرج منها الى ما هو أبسط وهو خطــأ أصلى فى هذه المذاهب أدى الى زيادة فى غموض الحقيقة وبعدنا عنها .

والواقع انه ليست هنــاك حقيقة بهذا المعنى . فالتفكير الفلسفى جعل الانسانيات مفتاح الحقيقة وهى لا تصلح لذلك ، وجعل الانسانيات أصــلا يبنى عليه نظام الكون . وهو خطــأ ولابد لنا أن نضــع الانســان موضعه الطبيعى من المخلوقات اذا أردنا أن يستقيم لنا فهم الحقيقــة على النحو الحــديث . الحقيقة ليست غاية محددة وانما هى معرفة علاقة شيء بآخر ، وعلاقتهما بغيرهما من الأشياء . على أن تكون هــذه العلاقات صالحة لتفسير كل ما هو مشابه لمــا هى بصدده . وقد يكون

هــذا الفهم للحقيقة متواضعا ولكنه وحده يؤدى الى الالمــام بالصورة الكاملة للقوانين الكونية .

النظــام الجــديد :

وعلى هذا المعنى المحدد للحقيقة يتقدم الدكتور كامل حسين لاقامة بناء المعرفــة من جديد . وهو يقدم لهذه النظرية قائــلا « يقوم البناء الذى اقترحه للمعرفة على نظرية تفاضــل القوانين (هيرارشية القوانين) وهى نظريــة لم تفرض فرضــا لتفسير ما نعلم من حقــائق . وانما هى نظريــة مستمدة من القوانين الطبيعية التى ثبت صدقها . والتى دليل صوابها مطابقتها للواقع، وبرهان ثبوتها امكان حساب نتائجها رياضيا والتى لا استثناء فيهــا » .

تفاضــل القوانــين :

هذه النظرية تقوم على عدة قواعد :

القاعدة الأولى : الأشياء وقوانينها شىء واحــد ، لا وجود لأحدهما بدون الآخر . الأشياء هى تجسيم للقوانــين . والقوانــين هى التى توجــد الأشياء .

القاعدة الثانيــة : اذا كان قانونان لا يعمل أحدهما الا فيما سبق أن عمل فيه لآخر كان أولهما أعلى من

الثاني . القوانين الأعلى أكثر تعقيدا من الأدنى .

القاعدة الثالثة : القانون الأعلى لا يتعدى عمله الأشياء التى هو مهيأ لها . ولا أثر له فى تغيير عمل القانون الأدنى .

القاعدة الرابعة : يعمل القانون الأعلى فى « تاريخ حياة » ما هو أدنى منه دون أن يغير من قوانين هذا الذى هو أدنى . وهذا الأثر الذى يحدثه القانون الأعلى فى حياة ما هو أدنى هو القضاء والقدر .

القاعدة الخامسة : يستطيع الشيء الأدنى أن يعرف وجود ما هو أعلى ، ولكنه لا يعرف من صفاته وخواصه الا ما يتعلق بقانونه الأدنى ، ومن المستحيل عليه أن يعرف كنه ما هو أعلى منه من القوانين والأشياء .

القاعدة السادسة : فى كل طبقة من القوانين وبين الطبقات المختلفة تدرج يجعلها منظمة تنظيما تكون فيه الأشياء والقوانين الدنيا أعم وأبسط

وآثبت من العليـــا التى تزداد فى رقيهـا
تخصيصا وتعقيدا وقلقا .

القاعدة السابعة : كل شيء وقانونه ينظر الى ما هو أعلى منه
على انه اله قـاهر لا يسأل عمـا يفعل ،
ولا تفهم حكمته التى لايمكن استنتاجهـا
طبيعيا من قوانين هـذا الذى هو أدنى .

بعد ذلك يلخص لنا المؤلف النظام العام القائم على نظرية « هيرارشية » القوانين على النحو التالى :

١ ــ فى الأصل (وهو تعبير تركيبى يختلف تماما عن قولنا « فى الأول ، فهذا تعبير زمنى ») كان هناك شيء واحد متناه فى الصغر له خاصية واحدة هى القدرة على الاتحاد مع اشباهه على نسب مختلفة فكان البروتون والالكترون. ولم يثبت هـذا بعد . ولكن ما أثبته نظام الذرة يجعل هذا الفرض مقبولا . اذ هو امتداد ذلك النظام الى ما هو أدنى من عناصر الذرة المعروفة اليوم . وسيثبت ذلك حين نستطيع تفجير البروتون والالكترون الى عناصرهما. ولعل الفوتون هو هـذا الشيء الوحيـد الذى كان فى الأصل . ولعل أول قانون خضع له هو قانون المغناطيسية الكهربيـة .

٢ ــ استمرت قوة الاتحاد هذه مع الأشباه وغير الأشباه بين الالكترونات والبروتونات فكانت الذرة التى هى نتيجة القوانين الذرية وهى سبب وجود القوانين الكيميائية •

٣ ــ استمرت قوة الاتحاد هذه مع الأشباه وغير الأشباه بين الذرات فكان الجزىء الذى هو نتيجة القوانين الكيميائية وسبب وجود القوانين الفزيائية •

كل اتحاد تم فى طبقة من هذه الطبقات كان نتيجة لقوانين هو دليلها ومجسمها ويخرج من هذا الاتحاد شىء جديد يخلق طبقة جديدة من القوانين التى لم يكن لها وجود من قبل •

٤ ــ من هذا يتبين ان القوانين المغناطيسية الكهربية أدنى من قوانين الذرة ، وهذه أدنى من قوانين الكيمياء وهذه ادنى من قوانين الفزيقا • والسبب فى اعتبارها أدنى ان الأعلى من بينها لا يعمل الا فيما سبق ان عمل فيه الأدنى • الفزيقا لا تعمل الا ما سبق ان عملت فيه الكيمياء •

٥ ــ ثم كانت فجوة فى الطبيعة • وهذه الفجوات طبيعية اذ لم يكن على الطبيعة أن توجد كل المحتملات الرياضية

للاتحادات المختلفة فى كل طبقة • وهـذه الفجوات نظامها هو نظـام الفجوات المعروفة معرفة ثابتـة فى الموجات الأثيريـة •

٦ ــ فى كل طبقة من القوانين والأشـياء المـادية كان ازدياد التعقيد سببا فى قلق تركيبى • لهذا كان الاشـعاع فى الذرات المعقدة القلقة •

٧ ــ اختصت ذرة الكربون ــ لسبب خاص فى تركيبها ــ بقدرتها على الاتحاد مع غيرها من الذرات اتحادا واسـع المدى الى أقصى حد فكانت الجزيئات الضخمـة المعقدة وهـذه الجزيئات تصبح لتعقيدها قلقة التركيب مثلهـا الذرات القلقة ذات الاشعاع •

ولكن هذا القلق منظم وله صفات خاصـة • فاذا اتحدت هذه الجزيئات الضخمة القلقة مع غيرها « خرج » من هذا الاتحاد مركب له صفات جديدة وبهذا يصبح حياء

٨ ــ المركبات التى تتكون منها المـادة الحية نتيجة طبيعية للتعقيد البالغ فى تكوين جزيئاتها • ثم اتحدت هـذه المركبات القلقة قلقا حيويا فكانت الخلية التى اكتسبت بذلك صفات الحياة نتيجة لتعقيدها وقلقها وهذه الصفات

هى المقاومة والمرونـة والتكيف وهى سر تأثر الخليـة بما يحيط بها دون أن تعقد بذلك شخصيتها .

٩ ـ اتحدت الخلايا فكانت الكائنـات وظلت هـذه محتفظة بصفاتها الحيوية .

١٠ ـ اتحاد الخلايا نوعان تكاثرى واستكمالى . فالتكاثرى أغلب فى حياة النبات وهو الذى أدى الى وجودها . أما فى الحيوان فالتكاثر محدد بالاستكمال . وهذا الاستكمال معناه وقوف التكاثر عند حد تكون الأعضاء .

١١ ـ ثم كانت الفجوة الثانية بين الحيوان والانسان كما كانت الفجوة الأولى بين المـادة والحياة .

١٢ ـ التعقيد البالغ حد القـلق فى الجزىء خلق فيه صـفات جعلته يقبل قانونـا أعلى هو التكيف والمرونـة فكانت الحياة ، كذلك التعقيد فى الحيوان (أو فى عضو خاص من أعضائه هو المخ) خلق فيه صفات جعلته يقبل قانونا أعلى هو المعنويات فكان الانسان . فالمعنويات هى النتيجة الطبيعية لتعقد العضـو العصبى فى الانسان وهو المخ فكانت الذاكرة والعقل .

١٣ ـ المعنويات على ثلاثة أنواع :

(أ) العلم : وهذا يتكفل به المخ من حيث هو جهاز الكترونى ضخم قادر على التذكر والتمييز .

(ب) الجمال : وهو نظام فى الأشياء يجعل أثرها موافقا لنظام حواس الانسان فتتجاوب معه تجاوبا يجلب لنا السرور .

(جـ) الفضائل : وهى نظام فى الأشياء يجعلها تتجاوب ونظام العقل . فالصدق نظام والكذب فوضى . والفضائل جمال معنوى كما كان الجمال حسيا .

١٤ ـ من صفات الحياة الملازمة لها « الكبح » وهو قدرة الكائن على الامتناع عن عمل ما وان كان عليه قادرا . والكبح لا يعمل الا فيما سبقه ارادة العمل والقدرة عليه ثم يكون الكبح . هـذا القانون هو الضمير وهو أعلى قوانين الانسان لأنه لا يعمل الا فيما عملت فيه الارادة من قبل .

١٥ ـ الله بالنسبة للانسان كالانسان بالنسبة للنحلة مثلا حين يهيىء لها الانسان الراحة والغذاء ويعفيها من جهد صنع الشمع . كل ذلك عن علم وقدرة وفهم وارادة . فهى تعلم بوجود شىء عال قادرا مريدا دون أن تستطيع تصور الانسان . كذلك الانسان يدرك وجود ذات علية عالمة

قادرة مريدة تعمل فى حياته • ولكنه لا يستطيع أن يتصورها على حقيقتها •

شرح القوانين :

هذا هو الهيكل العام لنظرية تفاضل القوانين كما طرحها المؤلف • وحتى يتسنى فهم العلاقة الصحيحة بين هذه القوانين وكيف يمكنها أن تؤدى الى وحدة المعرفة الانسانية ؛ فانى سأتابع المؤلف فى رحلته العظيمة المضنية فى الشرح والتأكيد • وكل أملى أن أوفق فى التركيز والايجاز دون اخلال أو تشويه لأفكار هذا العالم الجليل •

القوانين والأشياء أمر واحد :

اعتقد المفكرون من قديم الزمن أن القوانين والأشياء أمران منفصلان • الأشياء توجد أولا ، ثم تلحق بها صفات وخواص تحددها القوانين التى تعمل فيها • وأدى هذا النوع من التفكير بالطبيعيين والكيمائيين الى الأخذ بنظرية الجوهر الواحد التى تلحق به الصفات المختلفة فتتكون منها المواد العديدة • وقال نيوتن أن المادة تتغير ولا تنعدم •

وانتقل هذا المذهب بشكل أوضح الى علوم الحياة ، واتفق الكل على أن الحياة قانون مستقل يلحق بالمادة فتصبح كائنا حيا • ومن ثم جعلوا الكائن الحى جسما وروحا • فاذا

خرجت الروح من الجسم فقد الحياة وأصبح ميتا ، وبهذا أخذ النـاس يدرسـون قوانين الحيـاة منفصـلة عن قوانين الطبيعيات .

وفى الانسانيات كانت التفرقة بين الجزء النفسى والجزء الحيوانى فى الانسان ، وقسـم الناس الصفات الانسانيـة الى معنوية ومادية وحسبوهما منفصلين ، ولعل هـذا هو أسـاس الثنائية فى التفكير ، وهذا فكر لابد من العدول عنه .

فالمـاء يحمل السفينة ، فاذا فرضنا أن قوانين الكيمياء التى تربط الذرات الثلاث التى يتكون منها المـاء توقفت فان المـاء ينعدم بوصف كونه ماء ولا تطفو السفينة .

والقول بأن المـادة لا تنعـدم قول فيزيائى ، والتحليـل الكيميائى والانفجار الذرى يحولان المـادة كما نعرفهـا الى أشـياء لا علاقـة لها بالمـادة ، فهو فى الواقـع انعدام لها . ولو وقفت جميع القوانين الكونية لأصبح الكون كله مجموعة هائلة من عنصره الأول لا تمت لمـا نعرفه من الكون بصلة ، وهذا يثبت أن الأشياء وقوانينها أمر واحد لا وجود لأحدهما بدون الآخـر .

القوانين العليـا والقوانين الدنيـا :

القوانين المختلفة تختلف فى قوتها وميدان عملها ، فاذا تصورنا

القوانين والأشياء الكونيـة على هيئـة هرم لا تقوم طبقة فبه الا على أساس من طبقة أخرى كان لنا أن ننظر الى كل قانون لا يقوم الا على عمل قانون آخر على أن الأول أعلى والثـانى أدنى .

فالقوانين المـادية ثلاث طبقات . الذرية والكيميائية ثم الفزيائية . فالجاذبية مثلا لا تستطيع أن تعمل أو توجد الا بعد أن يتم تكون الجزيئات كيميائيا من ذرات تكونت ذريا . على هذا تكون الجاذبية ــ وهى مثل على القوانين الفزيائية ــ أعلى من القوانين الكيميائية كما تكون هذه أعلى من القانون الذرى. هـذه القاعدة تحدد بالضبط تحديدا علميا معنى القول بالأعلى والأدنى عند الحديث عن القوانين والأشياء .

فاذا انتقلنا الى الكائنات الحية وقوانين الحياة وجدنا هذا التحديد مفيدا فى تحـديد ما هو أعلى وما هو ادنى فى أمور البيولوجيا . فالمـادة الحية نفسها أعلى من القوانين المـادية لانهـا لا توجد ولا تعمل الا بعد تمـام عمل هـذه القوانين . والكائن المركب من خـلايا عدة أرقى من الكائن ذى الخليـة الواحدة لأن قوانين التخصص العضوى لا توجد الا بعد ازدياد التعقيد الناشىء عن تعدد الخلايا . فاذا وجدت الكائنات ذات الخلايا الكثيرة بدأ تكون النبات والحيوان . والحيوان يعتبر أعلى من النبات لأن كل قوانين النبات من نمو وتوالد وتكييف

موجودة فى الحيوان الذى يزيد عليهـا فى الحـركة وتخصص الأعضاء مثلا .

حتى اذا درسنا الانسان وجدنا قوانينه لم تكن لتعمـل أو توجد الا بعد ان يتم عمـل القـانون الحيوانى ويبلغ غاية التعقيد . فلم يكن لمثل النمله ان يكون لها من العقل والضمير ما يجعلها انسانا لانها لم تبلغ من تمام الحيوانيه ما يتيح لها ان تتمثل فيها الانسانيات . وهذا هو التفسير العلمى لقولنا ان الانسان أعلى الحيوانات .

واختص الانسان بقدرته على تقبل المعنويات . والعقل هو جهاز هذا التقبل كما انه جهاز التفكير والمعرفه . لكنه ايضـا عضو نشـا عن الرقى الطبيعى للترتيب الجسـمى . وهو يقوم بالوظائف الانسانيه الخالصه . فيجسم المعنويات فى صور حسيه وهى القدرة الفنيـة ، ويتاثر بما حوله من ماديات فيحيلها الى معنويات فى نفسه وهذه هى العاطفة . والصفة الغالبه على هذه هى النظام . فالنظام هو اصل تقديرنا للجمال والفضـائل . فالجمال يوجد حين يتجاوب نظام شىء ما مع نظام العضو الذى يدركه فتكون بينها (هارمونية) أو انسجام يحدث اللذة .

وقانون الضمير تجسيم أعلى لقانون شائع فى الكائنـات الحية كلها هو قانون الكبح . والسبب فى اعتبارنا هـذا القانون

أعلى القوانين انه لا يعمل الا بعد ان تعمل الارادة والقوة والعلم •

سقف المعرفة :

يستطيع الحيوان أن يدرك كل ما هو أدنى منه • ولكن فهمه للانسان ينحصر فى علمه بوجوده وفى علمه بما فى الانسان من قوانين حيوانية • فهو لا يفهم دوافع الانسان التى تدفعه الى تدليله أو تعذيبه ، والى تقديسه أو ذبحه • فهذه المعنويات الانسانية لا يفهمها الحيوان •

وموقف الانسان من القوانين التى هى أعلى منه لا يختلف عن ذلك فى شىء • فهو يعلم بوجود هذه القوى العليا • ولكنه لن يفهم منها الا كل ما هو انسانى وهذا هو بالضبط ما فعله الانسان فى معرفته بالله • فهو على يقين من وجوده ، ولكن فهمه لصفاته تعالى لايمكن أن يكون الا محدودا بما هو انسانى • وما فوق الانسان يعد بالنسبة له ميتافزيقا • أى ما وراء الانسان •

لكل معرفة اذن سقف لا تستطيع أن تعلو عليه • وهذا السقف تحدده القوانين التى يخضع لها صاحب المعرفة •

والمعرفة نوعان : معرفة بوجود الأشياء العليا وهو مستطاع

لكل ما هو أدنى ومعرفة حقيقة الأشياء العليا وهو مستحيل على ما هو أدنى .

وسر ذلك ان كل ما هو أعلى يخضع للقوانين الدنيا كلها وبذلك يمكنه معرفتها . أما الشيء الأدنى فلا يدرك من الشيء الأعلى الا ما تؤهله له قوانينه هو . وبذلك يدرك وجود الأعلى ويدرك صفاته الى حد محدود وهـذا بالنسبة له يعد سـقف المعرفـة .

القضـاء والقـدر :

هناك أثر هام تحدثه القوانين العليا فى القوانين الدنيـا دون أن تغيرها . ذلك ان الأعلى يمكنه أن يؤثر فى تاريخ حياة الأدنى . فالحيوان الذى يذبح قربانا لله لا يدرى شيئا عن القانون الانسانى الذى دفع الانسان الى هـذا الفعل . وهو أمر لايمكن تفسيره عند الحيوان بأى قانون طبيعى . فهو بالنسبة للحيوان قضاء وقدر .

وتطبيق ذلك على الانسـان يكون بفرض وجود قوانين وأشياء أعلى منه تحدد تاريخ حياته دون أن تغير من قوانينه . وهذه هى الربوبية . وهى تتفق مع رأى أهل الدين والتنزيل . « أليس هذا التقاء غير متوقع للعلم والدين فى فهم الربوبيـة وفى هذا التلاقى برهان على صدق الدين وصدق العلم » .

النظام العام للكون والمعرفة

« اذا كان للمعرفــة حق فى الوجود فذلك الحق لا يقوم الا على مطابقــة نظامها للنظــام الكونى . واذا كان النظامان متطابقين فان ما نعلمه عن الكون يقينــا يمهد لنا الطريق الى الفهم الحق للمعرفة » .

وهو يقرر أيضا ان لهذا النظام غاية « ان النظام الهرمى العالى والنظم الصغيرة التى تمثل قطعا منه داخل النظام الكونى لها غاية يحددها النظــام وليست هى التى تحدده » . وهــذا يختلف مع العلة الغائية فى الفكر التى تجعل الغاية هى التى تحدد النظــام .

على ان صعوبة هذا النظام تكمن فى الفجوات التى نراها فيه . والفجوات تكون فى علمنا بما هو موجود . وهذا يمكن تلافيه عاجلا أو آجلا . وتكون فى الكون نفسه . فليس على المخلوقات أن تشمل جميع الاحتمالات التى يستطيعها هــذا النظــام .

« وقد ظهرت هذه الفجوات بشكل واضح جدا فى الموجات الأثيرية . هــذه الموجات لها سرعة ثابتة ونسبة ثابتة بين طولها وذبذبتها . واختلفت فيما عدا ذلك . ولم نجد أطوالها كلها فى

الطبيعة • وكثير منها لم يظهر الا على يد الانسان مثل أشعة روتنجن والموجات اللاسلكية • لكن ما لم يخلق فى الطبيعة لا يختلف فى نظامه عما خلق » •

كذلك الفجوات الموجودة فى النظام الحيوى والانسانى بعضها طبيعى ، اذ لم تخلق كل الكائنات التى يحتملها النظام الحيوى • ومع ذلك فان هذه الفجوات لا تحجب النظام العام للحياة •

والفجوات الكبرى التى تقوم بين الأجزاء الثلاثة للمعرفة وهى المادة والحياة والانسان من أصعب الأمور فهما ولكنها ضاقت الى الحد الذى نستطيع معه ان ننتقل من نظام الى نظام دون مشقة كبيرة على العقل •

ومما يزيد ثقة الباحث فى بلوغ هذه الغاية ان النظام التصاعدى للمعرفة والكون يقوم حسب قوله على فرضين :

الفرض الأول أن أصول الكون بسيطة جدا وأنها ازدادت تعقيدا حتى بلغت الانسان •

والفرض الثانى أن الطبقة الأولى من التكوين العالمى وهى قوانين المادة تثبت هذين الفرضين ثبوتا يكاد يكون يقينا •

ومن ثم يبدأ فى بحث أمر الفجوات باعتباره أصل من أصول البحث فى وحدة المعرفة • وبالنسبة لنا يعتبر فهمه أمرا ضروريا

لقبول هــذه النظرية والثقة فى نتائجها • وهذا ما يزيد من حرصى على ايراد التفاصيل أحيانا حتى لا أبتسر الأفكار أو أترك فى هذا التحليل فجوات •

من الحيوان الى الانســان :

كانت الفجوة الأولى بين المــادة والحياة • والفجوة الثانية بين الحيوان والانسان • وكانت ذرة الكربون هى جسر العبور فوق الفجوة الأولى ، اذ تميزت بصفة خاصة جعلتها تقبل التعقيد الكيميائى البالغ الذى أوجد الجزيئات الضخمة القابلة للحياة • أما الفجوة الثانية فسيتم عبورها عن طريق القوة الخاصة التى تتمتع بها خلايا الجهاز العصبى • فهى أكثر الخلايا قابلية للتعقيد والتضخم •

وهذا التضخم هو الذى جعل نشأة المخ الانسانى ممكنة • وهو الفرق الأكبر بين الانسان والحيوان • وعلى هــذا يكون الانسان هو الحيوان الذى نما جهازه العصبى نموا خارقا • والمخ هو عضو العقل كما تكون العين عضو البصر • على فرق بينهما ان العلاقة بين فسيولوجيا العين والبصر واضحة على حين ان المطابقة بين فسيولوجيا المخ ووظيفة العقل ليست واضحة تماما •

وقد ظل العلم الى عهد قريب على جهل تام بكنه فسيولوجيا المخ وخاصة المــادة السنجابية فيه • وقد أجريت عمليات قطعت

فيها الصلات التشريحية بين المادة والجسم فلم يفقد الانسان ذاكرته أو علمه ٠ وان كانت شخصيته تتغير على نحو ما ، وهذه التجارب تثبت ان فسيولوجيا المخ لم تكن فيزيائية ولا كيميائية ولا تشريحية ٠ ولم يستطع أحد أن يتبين طبيعة هذه الفسيولوجيا حتى وقت قريب جدا عندما كشفت الخواص الالكترونية ٠ وهذه الخواص الالكترونية تمهد السبيل الآن لفهم فسيولوجيا المخ وعلاقتها بسيكولوجية العقل ٠

ويتحفظ الدكتور كامل حسين على هذا الرأى قائلا « لم يثبت ثبوتا قاطعا ان عمل المخ الكترونى صريح ٠ لكن فسيولوجيا المخ من غير شك ان لم تكن الكترونية فعلا فهى قريبة جدا منها » ٠

الالهام والذكاء :

والجهاز العصبى عند الحيوان هو أصل الغريزة فيه ٠ فالفرخ حين يخرج من البيضة يبحث عن غذائه فيحفر الأرض بقدمه ويختار ما يصلح له غذاء ٠ وتفسير هذا هو ان تركيب الاتصالات العصبية يسمح لهذه العملية ان تتم بهذه الطريقة ٠ فعلم الفرخ هنا هو علم عن طريق تشريحى لايزيد شيئا عن علم خلية المعدة بالهضم ٠

« وهذا العلم الناشىء عن التركيب الخلقى للجهاز العصبى

البسيط هو الالهـام . أما الجهـاز العصبى الذى يكون أكثر تعقيدا فان قدرته تكون أكبر . فالجهـاز العصبى البسيط عند الحيوان يؤدى الى الالهام ، كما يؤدى الجهـاز العصبى المعقد عند الانسان الى الذكاء . ألالهام يقوم على أسـاس تشريحى خلقى . وهو من نـوع الانعـكاس العصبى . وهو وان يكن انعكاسـا معقدا الا انه أبسط من أن يجعـل للحيوان مرونـة أو استعداد لكسب الخبرة والمعرفة .

ولابد لاختزان التجربة من مسالك الكترونية عديدة كالتى نراها فى المخ الانسانى . وهو بهذه المسالك والتعقيد والتضخم يكتسب قدرة تختلف تماما عن الالهـام وعما يستطيعه الجهاز العصبى البدائى فى الحيوان .

هذا هو المعنى العلمى للالهام والذكاء . والالهام يكون فى الانسان كما يكون فى الحيوان وهو ما يستطيعه نتيجة التركيب الخلقى لجهـازه العصبى والذكـاء هو ما يستطيعه من جراء المسـالك الالكترونية التى تتكون فضـلا عن ذلك من جراء اختزانه الخبرة والعلم .

الانسـان والكـون :

وهنا يقرر الدكتور كامل حسين ان « الانسان ليس بدعا فى الكائنات الحية . وليس بمعزل عن النظام الكونى بل هو مخلوق

يمكن « استنتاجه » من النظام الكونى دون كبير عناء • فاذا كان تعقد تركيب جزيئات الجمـاد جعله قابلا لاستقبال قوانين الحياة ، وكان الكائن الحى هو تجسيم هذه القوانين فان زيادة التعقيد فى تركيب الحيوان جعلته قابلا للقوانين الانسانية وأصبح الانسان هو تجسيم هـذه القوانين • وقد كادت زيادة التعقيد هذه تكون مقصورة على نمو الجهاز العصبى ــ المخ وملحقاته من غدد وأعصاب ــ نموا بالغا وعلى ذلك يكون الفهم الحق للانسان متوقفا على فهمنا للمخ الانسانى فهما كاملا •

وهذه الدراسة يجب أن تشمل النقاط الآتية :

* المخ من حيث هو عضو له فسيولوجيا خاصـة به ، وعلاقة هذه الفسيولوجيا بسيكولوجية العقل •
* المخ من حيث هو جهاز تتصل به الصفات الانسانيـة الخالصة التى تقوم على الاحساس بالمعنويات كتقديرنا للجمال وخضوعنا للقوانين الخلقية أوامرها ونواهيها •
* وهل يمكن أن تكون شخصية الانسان من عمل هـذا العضـو ؟
* وأخيرا المخ من حيث هو جهار المعرفة •

وفى محاولة الاجابة على هذه المسائل نراه يرسى أولا هذه

القاعدة « ان كان تركيب المخ وخواصـه تسمح له بذلك كله فلا داعى لفرض وجود قوى أخرى غامضة غريبة عن الخواص الانسانية العليا . فلابد من فرض وجود قوى لا ندرى لها مكانا فى الجسم تجعل الانسان انسانا » .

لقد كشف العلم أخيرا عن القوة الالكترونية . وتبين لنا اننا نستطيع أن نؤثر فى المواد تأثيرا لا يغير من كيميائها ولا من فزيائها ولكنه مع ذلك يرتب الكتروناتها ترتيبا ثابتا يختزن به هذا التأثير ويستعاد عندما يراد ذلك . وأبسط مظاهر هـذه القوة هو ما نراه فى شريـط التسجيل . وهـذه هى الذاكرة بعينها . ولكن الكاتب لا يجزم بأن عمل المخ الكترونى خالص من نوع شريط التسجيل لكنه يرى أن الذاكرة يمكن تفسيرها على أساس شبيه بالالكترونيات .

التفسير المادى للعواطف :

واذا كان هذا التفسير يصلح لشرح الذاكرة وما يتعلق بها مثل العادات والخبرة والعـلم بالمـاضى ، فهل يصـلح لشرح عواطفنا التى تتمثل فى الحب والكره واعجابنا بالجمال ؟

ويجيب الدكتور كامل حسين على النحو التالى :

« يحدث حولنا أمر تدركه حواسنا سمعا أو بصرا أو شما أو لمسا أو ذوقا ، فاذا كان هـذا الأمر منظما ، وصادف نظامه

توافقا ونظام الأعضاء الخاصـة به كالعين أو الأذن الداخليـة فان ذلك يحدث فيها حركة منظمة . وتنتقل هـذه الحركة المنظمة الى المخ فتجد فيه مسالك الكترونية سابقة خلقية أو مكتسبة . فاذا تصادف ان توافق نظام هذه المؤثرات مع نظام هذه المسالك التى فى المخ تم تسجيـل هـذا المؤثر على نحو منظم دون ان يصطدم بعقبات أو مسالك مغلقة تضطرب عندها هذه الموجات. عند ذلك يحدث لنا السرور . وتنشأ الرغبة فى تكرار هـذا الاحساس وتنشأ عندنا عاطفة الحب لهذا الذى كان السبب فى الاهتزاز المنظم الذى يسير فى مسالك مهيأة له . وهذا تفسير محتمل للأصل المـادى للحب والجمال . وليس أدل على أن هذا النظام هو أصل سرورنا بالجمال من الموسيقى . فلو لم يكن النغم منظما ولو انه وقع على أذن داخلية لم تنتظم أوتارها انتظاما يوافق النغم ، ولو أن الموجات الصاعدة الى المخ لم تصـادف طريقا الكترونيا معبدا اما خلقيا أو بالمرانة والتلقين لمـا كان لنا من ذلك السرور » . والى هذا يرجع الاختلاف بين الموسيقى الشرقية والموسيقى الغربية التى يتذوقها الغرب .

التفكير والارادة :

هذا النظام الموجود فى المخ ليست وظيفته الوحيـدة أن يستقبل ويختزن . بل ان له حياة داخلية . وهو فرق كبير بين أى جهاز الكترونى صناعى مهما عظم والمخ الانسانى ذلك ان

الحياة فى الخلايا تخلق تيارات تسلك المسالك التى مهدتها لها الطبيعة أولا والتى مهدتها لها العوامل الخارجية ثانيا . ثم هى تغير من هذه المسالك أيضا على قدر قوتها أو ضعفها وتوافقها أو اختلافها وعلى قدر توافقها مع المسالك الداخلية التى يحدثها وجود الحياة فى خلايا المخ .

هذه التفاعلات الجديدة تكون التفكير والارادة ، وهى من عمل حيــاة الخلايا نفسها وهى تتأثر بالمسالك القديمــة وتؤثر بدورها فى هذه المسالك.

الأصل الطبيعى للفضــائل :

« بين التفاعلات الناشئة عن روافد المخ ، وبين التفاعلات الناشئة عن المخ نفسه تنشأ تفاعلات فى اتجاه مضــاد يخرج من المخ الى أعضاء الحركة والعمل » وينشأ نتيجة لهذا « تيــار جديد يحدد أعمال الانسان » وهذه الأعمال التى تكون منظمــة فى أصلها وتسلك مسالك موائمة دون اصطدام أو توقف أو قسر ويستريح اليها الانسان هى الفضائل .

فأكثر الفضــائل تدل عليها أعمــال مصدرها الفكرى منظم . فالصدق نظام والكذب فوضى ، والأمانة نظام والخيانة فوضى والشجاعة نظام والرعب فوضى . فاذا تعلقت ارادة الشخص بعمل يبدأ فى خلايا مخه منظما ويسير فى مسالك منظمة ويؤدى الى عمل منظم . فهذا هو الخلق الجميل .

ابتكار الأعمال الفنية :

« هناك أعمال تصدر عن المخ تكون فى أصلها منظمة ثم تسير فى مسالك الكترونية منظمة سبق ان هيأها فى الأصل قبولنا للجمال . هذه الأعمال تكون بالطبع جميلة . وهذا طريق ابتكار الأعمال الفنية . فى كلا الأمرين الصادرين عن المخ ، العمل الفنى والأخلاق الكريمة ، صفة غالبة هى النظام وذلك ما وجدناه فى الجمال وما سنجده فى المعرفة » .

قانون الكبح والضمير :

من الاخلاق الفاضلة نوع غير ايجابى ، وهو الامتناع عن عمل أشياء محببة الى الانسان تثير فيه السرور ، وأخرى قد يصيبه منها خير . ويكون هذا الامتناع عما نسميه جملة المحرمات دون ارغام أو ضغط أو جزاء واضح أو خوف مرتقب . بل يكون هذا الامتناع بدافع داخلى نفسى .. وهذا الامتناع أمر طبيعى .. يتفق « وقانون الكبح » فى الكائنات الحية . وهى قوة ثبت وجودها ولها تأثير فى فسيولوجيا الجسم وهى أوضح ما تكون فى أعمال الجهاز العصبى » .

فالطريقة التى يتبعها الجسم فى تنظيم وظائف أعضائه حين يتعلق هذا التنظيم بالجهاز العصبى ، هو أن يهيىء للعضو نوعين من الأعصاب أحدهما يزيد فى تنبيهه والآخر يهدىء من نشاطه .

فحركة القلب مثلا يسرعها نوع من الأعصاب فاذا أريد أن يهدأ فلا يكتفى فى ذلك بالاقلال من عمل هذا العصب المنبه بل هناك عصب آخر عمله الأول التهدئة » .

« هذا يسمح للقلب ان يتأثر بسهولة حسب الظروف ، وهو فى الوقت نفسه يمنع أن يصل هذا التأثر الى حد الخطر .. وهذا يدل على ان القوتين الأصليتين فى مادة الحيـاة وهما المرونـة والمقاومة تتخذان مظاهر عديدة . وهذا مظهرهما فى هذه الطبقة العليا من الحياة » .

ليست أعمال الانسان كلها من عمل الارادة وحدها ، اذا قويت قام الانسان بعمل ما توحى به واذا ضعفت امتنع ، بل أعمال الانسان كحركة القلب توازن بين الارادة الفاعلة والكبح وهذا ضمان واضح لحسن مواجهة الظروف دون تعرض للخطر .

فقانون الكبح حين يتعلق بالمعنويات هو قانون الضمير . وهو قانون طبيعى متسق مع القوانين الطبيعية والحيوانية . وهو أرقى من جميع القوانين الانسانية الأخرى وهـذا بالطبع على عكس ما تظن بعض المذاهب الفلسفية التى تعتبر الضمير عرفـاً اصطلح عليه الناس . والوجوديون يقولون « ان الناس أحرار ولو عملوا ما يحبون لاستقامت حياتهم على نحو خير مما هم فيه الآن من ارهاق بالخوف من المحرمات والخطيئة » . وهو مذهب علمى ليس له مسوغ عقلى .

الانسان والضمير :

و « نصيب الفرد من هذا القانون يختلف ، فحيث يكون نصيب الانسان فيه كبيرا يكون القديسون والأولياء والمتصوفون والمتزمتون والفضلاء . وحيث يكون نصيب الانسان منه قليلا يكون المتمتعون بالحياة والنفعيون وعباد اللذة والاباحيون » .

ثم ينتهى الدكتور كامل حسين من ذلك لاثبات أن التطور أدى الى تكوين عضو خاص بالانسان له صفات وقوى وقوانين خاصة به وان هذا العضو وهو المخ يؤدى الوظائف الآتية :

١ ـ الذكاء : وهو القدرة على استيعاب أكبر عدد من المؤثرات الخارجية واختزانها وايجاد مسالك الكترونية تربطها بعضها ببعض .

٢ ـ العقل : وهو تأثر الحياة التلقائية داخل المخ وهى تتأثر بنظامه الداخلى وبما أدخل عليه الذكاء من تغيير . وفيه تتمثل الارادة والاخلاق الايجابية الكريمة والحكم الصادق والانتاج الفنى .

٣ ـ الضمير : وهو قوة الكبح وهو عمل طبيعى للمخ

تنشأ عنه قوة الامتناع عن المحرمات وعما
يعتبر خطيئـــة • وهو محور الاخـــلاق
الفاضـــلة •

ولعل هذا يكون أول الطريق لايجاد « الأصل الطبيعى »
للأخلاق وهو ما بحث عنه الفلاسفة عشرات القرون (١) •

وهـــذه الوظائف الثلاث التى يقوم بها المخ الانسانى ـــ
الذكاء والعقل والضمير • جعلت « الانسان أرقى الكائنات وهذا
الرقى ثابت علميا وليس مجرد زهو انسانى دفعـــه اليه غروره
بنفسه • ويلتقى هـــذا الوضع العلمى مع ما قامت به الأديان
من انه خلق على هيئة الله • وبه نفسر ما أحس به الفلاسفة من
قديم حين قالوا ان القانون الخلقى يرفع الانسان فوق المخلوقات
كلهـــا •

المعرفـــة ترف انســـانى !

بقيت للمخ وظيفة ليست من صميم عمله هى وظيفة المعرفة•
وهى من الترف الذى صادف العقل فأوغل فيه واستعذب نتائجه •
« فالمخ وهو جماع القوانين الكونية كلها فى صـــورة مصغرة

---

(١) علق الدكتور حسين فوزى على هـــذا بقوله « هذه فروض ونظريات الصحة فيها تعادل الخطأ • فلا دليل لدينا سوى منطق صاحب النظريات والفروض » •

لا يعدو أن يكون عضـوا نظامه أقرب الى نظام الكون • وكل حدث فى الكون وكل قانون من قوانينه يجد فى المخ تجاوبا معه•• وان التوافق والتجارب يجلبـان لنا سرورا ولذة فان المعرفـة ظلت فى جميع العصور مصدر لذة وسرور قبل أن تكون مصدر فائـدة » •

اللـه والانسـان :

وهنا نأتى للفجوة الثالثة وهى « التى بين الانسان ومن فوقه فهى بعيدة الغور واسعة المدى الى حد يجعل عبورها علينا عسيرا جدا » •

والذين انكروها انكروا وجـود ما وراءها ، أى انكروا وجود الله •

فهل الانسان هو القانون الأعلى للكون ؟

ويرد الدكتور كامل حسين « بأن هذا ليس من الحقيقـة فى شىء • ذلك أن أعلى قانون فى الكون (أو أعلى شىء فيه) هو الذى لا يؤثر فيه قانون آخر أعلى منه • وهو الذى تاريخ حياته بيده لا يغيره شىء يعلو ارادته • فهل الانسان يمثل هذا القانون الأعلى ؟ وهل ارادته وحدها هى المتحكمة فى حياته ؟

ان الأمر يخالف ذلك تماما • وان الذى يؤيد الجزم بأن

هناك شيئا أعلى من الانســان هو انه ليس المتحكم الوحيد فى حياته • وان حياته تتأثر بما لا يفهمه ولا يعرف له كنها وبما هو أعلى منه مما سبق « سميناه القضــار والقــدر » وهــذا هو البرهان الوحيد على ان وراء الانسان فجوة ، وان وراء الفجوة قانونا أعلى •

وقد يكون « هذا المذهب مفتاح نظرية الربوبية وموضعها العلمى من النظــام الكونى والتفسير المنطقى للقضار والقدر » •

ولننظر فى رأى الانسان فى الله لنتبين هل يتفق هذا ورأى كل شىء فى ربه • « فكل ما يعرفه الانسان عن الله هو وجوده وان بيده القضــاء والقدر • وكل محــاولة يبذلها لمعرفة كنهه سبحانه وتعالى محكوم عليها بالاخفاق حتما • أما وجود الله فثابت من ان حياة الانسان والناس مملوءة بآثار قوى لا نعلمها•• ووجود الله والقضــاء والقدر أمران متلازمان ، فالقضاء والقدر هو « أثر وجود الله فى أعمال الانســان » •• وهو دليل على « وجود قوة عليا وقانون أرقى منا فهما بذلك » •

الاختيــار والجبريــة :

وفى ضوء هذا الشرح يمكن لنا أن نفهم موضــوع الاختيار والجبرية • « فكل شىء فى دائرة حدود القوانين الخاصة به • ولا تعارض بين هــذا وبين السببية • فلكل شىء سبب • ولكن

الحياة المعقدة للكائنات الحية ، والتركيب المعقد جدا للانسان يجعلان الأسباب الواحدة تؤدى الى عدة نتائج . ومادامت النتائج تتفق وقوانين الكائن الحى فهو حر فى اختيار أى من هذه النتائج . وهو مجبر فى كل ما عدا ذلك » .

الايمان بالله :

لم يعد وجود الله فى حاجة الى دليل الا أن يقوم الدليل على ان الانسان أعلى الكائنات وانه المتحكم وحده بارادته فى تكييف حياته وهو ما لم يثبت بعد ، وتبعا لهذا فلا مناص من الايمان بهذه الحقيقة الثابتة لأن الايمان كما يقول المؤلف هو أكبر المعنويات الانسانية وأشملها وأعمقها .. وهو جماع النظام العقلى كله . وهو مظهر هذا النظام . والذين يحرمون صفة الايمان يدلون بذلك على أن فى نظام عقلهم اضطرابا خلقيا يصعب علاجه .

حدود المعرفة الانسانية :

وفى ظل هذا النظام الطبيعى لتفاضل القوانين تصبح معرفة الانسان بالله محدودة بنطاق علاقة القانون الأدنى بالقانون الأعلى . « فنحن حين نؤمن بالله انما نقتنع بوجوده ، أما ما نقول عن صفاته فهو من غير شك وصف بلغة الناس وهذه الصفات محدودة بما هو فى متناول العقل الانسانى وأكثرها أشبه بالصفات

الانسانية منه بالصفات الالهيــة التى ستظل بالنسبة الينا أمرا مجهولا تماما . ونحن نصفه سبحانه وتعالى بتمام العلم والقدرة وهذا طبيعى ولو لم يكن كذلك لكان أقل من الانسان .

فاذا كانت الأديان الثلاثة تختلف نتيجة لاختلاف العقول ، مع أن جوهرها واحد وهو الايمان بقانون أعلى لا نعرف كنهــه ولا صفاته ، واذا كان بعض هــذا الخــلاف يرجع الى الكتب المقدسة ، فهل يعنى هذا عند المؤلف ان هذه الكتب أو بعضها قد تأثر بفكر من كتبوه أو حملوه الينا ؟ والاجابة على هذا السؤال ليست بالأمر اليسير . لكن يحمد لهذا المنهج انه قد أوصــلنا الى يقين فيما يختص بوجود الله ، وهو مصدر الايمان وجوهره. أما الخلاف على ما فى الأديان من تفاصيل فهذا أمر قائم منذ نزلت الأديان . وسوف يظل هنالك دائما من يفكرون بعقلهم ويتحفظون ضد بعض الفروض الدينية وطقوسها .

ولكن هذا المنهج سوف يخدم بغير شك فى توضيح بعض المفاهيم الفلسفية والدينيــة الصحيحة ، ويساعد على تطهــير المعتقدات مما علق بها من الخرافات التى لا يقبلها العقل .

وقد أعطى المؤلف أكثر من مثل على حسن تطبيق هــذا المنهج فى كتابــه الأخير « الذكر الحــكيم » حيث اختــار من الموضوعات ما يلائم مشاكل الانسان المعاصر وراح يفسرها بطريقة

مقنعة تقرب العقيــدة من الانســان وتزيد من ايمانه وتحقق له التطهر والسعادة النفسية ٠

كما ان ايمانه بنظرية التطور يتضح فعلا فى تفسيره لقصــة خلق آدم على أساس أن آدم لم يكن « أول حيوان مشى على رجلين، ولم يكن أول حيوان ناطق ولا أول كائن ذكى » ودون أن يحدد نوع الكائنات التى سبقته فى هــذه الناحيــة هل هى الملائكة أم القرود الانسانية يقول : « ولكنه أول انسان من حيث أنه أصبح عالمــا بالحرام وبالحــلال ذا ارادة وذا قدرة على المعرفة والآيات صريحة فى ذلك » ٠ (قصة آدم/الذكر الحكيم)

من هــذا يتبين لنا أن تطبيق هــذا المنهج على المفاهيم الفلسفية والدينيــة والفنيــة قــد يؤدى الى تصحيح كثير من التصورات الخاطئة التى علقت بالفكر على مدى قرون عديدة والتى لازالت تكبل العقل العربى وتحد من انطلاقه فى آفــاق العلوم والفنون ، وهو أمر ضرورى لفتح الطريق أمام الوضــوح الفكرى والعقائدى ، حتى يكون الفكر أكثر صدقا ولصــوقا بالواقع يأخذ منه ويعطيه ويدفع بالحلول الصحيحة لمشاكله ٠

لقد حاول كامل حسين أن يملأ الفجوة بين السماء والأرض على أساس طبيعى ، بدءا من أسفل الى أعلى ، كى يهدم بهــذا أساس الثنائية والغائية فى الفكر ٠٠ ولم يعد هناك طبقا لهذا المذهب الجديد ضرورة للازدواجية والتلفيق الفكرى ٠ ولم يعد

هناك مجـال لأن يقول أحد بأن هذا مادى أو هذا معنوى .
فكل منهما يؤدى الى الأخر اذ أصبحا شـيئا واحدا فى منهج
تدرج القوانين ، ولم تعد التفرقة بينهما جائزة .

وقد نبه المؤلف لهذه المشكلة حين قال :

« لا أود أن يوصف هذا التفسير الذى اتناوله بالمـادية .
والذين يتتبعون هـذا البحث الى آخره سيرون اعترافا صريحا
بوجود ما فوق الانسان . الا ان هـذا الاعتراف لا يخـالف
القول بأن حيـاة الانسـان كلها مادية كانت أو معنوية ليست
الا نتيجة طبيعية لوظائف أعضائه ومنها المخ الذى يتعلق بوظيفته
كل ما هو انسانى خالص » .

وفى رأيى ان هذا المنهج الطبيعى هو تجديد وتطوير لنظرية
التطور التى عرضها داروين فى كتابه « أصل الأنواع » . منذ
أقل من قرن ونصف . وهذه المساهمـة المصرية التى قدمهـا
كامل حسين تستند الى ما حققه العلم من كشوف فى البيولوجيا
والطبيعة والكيمياء . وتطوير النظرية لتشمل مجـال المعرفـة
الانسانية وتنظيمها هو مكمن التجديد والأصالة .

وظنى ان اثارة الاهتمام بهذه النظرية ،قد يترك أثرا فى
تجديد الفكر العربى لن يقل عما تركته كتابات ابن رشـد فى
ميدان الفلسفة ، أو لمـا كان لمقدمة ابن خلدون بالنسبة لعلم
الاجتمـاع .

معركة بين العقاد ومحمد كامل حسين
حول كتاب ((وحدة المعرفة))

بدأت هذه المعركة بخطاب أرسله قارىء للأستاذ العقاد يقول فيه ان هناك تشابها واضحا بين ما كتبه الدكتور محمد كامل حسين (فى وحدة المعرفة) ، وبين ما نادى به الكسندر صمويل من قبل فى كتبه التى تضمنت أراءه ومباحثه فى الميدان الفلسفى ثم طلب من الأستاذ العقاد التفضل بتناول هذه القضية فى يوميات الأخبار وهل هناك اقتباس أم أنه توارد خواطر ؟

نشر هذا الخطاب الذى أرسله عبد العزيز البدرى من ميت غمر بيوميات العقاد بصحيفة الأخبار (١٤/١١/١٩٦٢) ورد عليه الأستاذ العقاد قائلا :

« ان التشابه تام بين كتاب « وحدة المعرفة » وبين قواعد مذهب الاسكندر فى التطور وأصول الأخلاق وصفات المادة والربوبية وقد بسط الفيلسوف مذهبه هذا فى كتابه الذى ألقاه محاضرات ثم نشره سنة ١٩٣٤ فى مجلدين باسم « المكان والزمان والربوبية » .

وبعض آراء الفيلسوف فيما يدور حول مبحث الجمال

والفن مفصل فى كتابه الآخر « الجمال وصور من القيم الأخرى » وقد لخصنا مذهب الفيلسوف عن الربوبية فى كتابنا عن « الله » الذى ألفناه قبل ستة عشرة سنة (صفحة ٢٥٢ ـ ٢٥٤) وهو الجانب الذى يتناول الربوبية وصفات المادة وعدنا فى كتاب عقائد المفكرين الى بيان مذهبه وعقيدته ببعض الايجاز .

أما السؤال عن توارد الخواطر فالأستاذ المؤلف أولى منا بالاجابة عنه قبل تفصيل القول » .

وواضح من عبارة « قبل تفصيل القول » أن العقاد كان يتحين الفرصة للاجهاز على هذا الكتاب وذبح مؤلفه على طريقة العقاد المعروفة فى مواجهة خصومه . وكان هذا كافيا طبعا لاستفزاز الدكتور محمد كامل حسين فكتب مقالا (بالأخبار ٦٢/١١/٢١) يرد فيه على العقاد ويهاجمه بقسوة ويتهمه بعدم القدرة على التمييز فى البحوث العلمية وما يقوم عليها .

بدأ الدكتور كامل حسين رده قائلا :

« لا أظن الأستاذ العقاد جادا فى دعواه أن كتابى « وحدة المعرفة » منقول عن كتاب آخر . فهو لم يقم على هذه الدعوى دليلا أو شبه دليل . بل ترك الأمر لى مع علمه أن البينة على من ادعى . وأصالة كتابى مسألة لا يتطرق اليها الشك . ولم يحدث فى حياتى الفكرية كلها أن نقلت كلمة صغيرة أو كبيرة

لأحد من النـاس دون أن أنسبها الى قائلها . ثم أنى لا أعرف هـذا الصمويل الكسـندر الذى يصفه الأسـتاذ العقاد أنه أبو فلسفة يعينها فى انجلترا والذى زاده مجدا على مجده وزاد كتابه عظمة فوق عظمته أن الأستاذ العقاد لخص كتابه . والمعنيون بالعلوم فى شغل عن أن يتلقوا معلوماتهم من ملخصـات ولو كان الملخص الأستاذ العقاد » .

ومما قاله أيضا :

« وأصالة كتابى يدركها من له حس صادق فى البحوث العلمية والمذاهب الفكرية التى تقوم عليها فهو بناء يقوم كل جزء منه على ما سبقه فى تسلسل منطقى علمى ليس فى منطقـة ثغرة . وقد يتبين أن المذهب الفكرى الذى يقوم عليه الكتاب خطـأ كله . ولكنه لا يمكن الطعن فيه بأنه منقول . وأسلوب الكتاب وترتيبه لا يدعان مجالا للشك فى أنه أصيل » .

« والأستاذ العقاد صادق الحس فى الشعر والأدب . ولكنه ليس صادق الحس فى البحوث العلمية وما يقوم عليها . لأن صدق الحس فى العلوم ينشأ من ممارستها ممارسـة طويلة . وقد خانه الحس حين ذكر أن التشابه تام بين كتابى وكتاب من يلحد اليه . لأن الفرق بين المذاهب العلمية قد يدق على من لا يحسن العلم بها . وسأسوق الى الأستاذ العقاد بعض أمثلة

قد يتدبرها ليتبين أن ما يدعيه من تشابه قد يكون أصله عدم تبصره بحقيقة مذاهب التفكير العلمية » .

ثم قدم أمثلة بمن يقول أن التشابه تام بين قصيدة شوقي « يا أخت يوشع خبرينا » ومعلقة عمرو بن كلثوم « ألا هبي بصحنك فأصبحينا » وأن شوقي سرق قصيدته من المعلقة لأن القصيدتين متفقتين في الوزن والقافية ثم تساءل « ألا يرى العقاد أن ذلك دليلا على أن محدثه لا بصر له بالشعر . واذا جاءه رجل يقول له أن روفائيل سرق صورته من لينونارد لأن الصورتين تصوران العذراء وطفلها . ألا يكون رد الأستاذ عليه اذهب وتعلم فن التصوير . « وكذلك من يقول بأن كل الأوبرات متشابهة فهو عديم الحس بالموسيقى » . ثم ينتهي الى أن ما يقوله العقاد عن التشابه التام بين كتابه والكتاب الذي لخصه ليس بعيداً عن هذه الأمثلة .

ثم يفرق بين مناهج نقد الشعر والأدب وبين مناهج نقد العلوم قائلا : « وأصالة الأستاذ العقاد في الشعر والأدب حملته على أن ينقل الى ميدان العلوم والفلسفة أسلوبا في النقد لا يصلح للعلوم . ذلك أن بضاعة النقد القائم على دعوى السرقات الأدبية لا تنفق في سوق البحوث العلمية وما تقوم عليها . والمشتغلون بالعلوم لا يعرفون هذا الأسلوب ويفضلون أن يتركوه للأدباء وللأدباء القدامى بالذات وخاصة من ينقدون

الشعر العربى • وللشعر العربى صفات خاصـة قد تجعل النقد بدعوى السرقة مقبولا • على أن أكثر النقاد والمحدثين لا يعبأون بهذا اللون من النقد أما فى العلوم فلا يمكن أن يكون هـذا سبيل النقد الحق لأن كل نظرية علمية تقوم على حقائق سابقـة ولم يقل أحـد أن هكسلى سرق من داروين لأن كليهمـا أثبت التطور • ولم يقل أحد أن توينبى سرق من شبنجلر على ما فى بعض آرائهما من تشابه » •

« والعلوم تبحث عن الحقيقة وهى ثابتة • والتفاضـل بين البحوث يقوم على نجاحها فى اثبات الحقيقة وعلى الطريقة المؤدية الى هـذا الاثبات • وعلى ايجاد مذهب مستقيم متكامل يضم أشتات القوانين الطبيعية والانسانية والسماوية ويحدد علاقاتها (وليرجع الأستاذ الى كتاب « وحدة المعرفة » وفيه شرح واف لهذه المسألة) ألا يعلم الأستاذ العقاد أن كل كتب التوحيد تؤدى آخر الأمر الى اثبات وجود الله • فهل كل كتاب منها مسروق من الآخر • وكل الكتب التى تبحث فى التطور والنسبية تؤدى الى نتائج واحدة فهل يرى أنها مسروق بعضها من بعض لأنها تعالج موضوعا واحدا وتصل الى نتائج متقاربة » •

وهذا الكلام صحيح و لاشك الا أن نقطة الضعف فى رده كانت فى السخرية من صمويل الكسندر ثم قوله بأن دائرة

المعارف الانجليزية لا تعرفه ثم أتهامه للعقاد بعدم التبصر لهـذه الأمور وبالغرور ثم دعاه لأن يتعلم التواضع •

وقد وجد العقاد فى هـذه النقاط ضالته وأمسك بتلابيب المؤلف محاولا القضاء عليـه وعلى كتابه فى مقالين متتاليين فى الأخبـار •

وجاء المقـال الأول على طريقـة التهديدات التى يطلقهـا الملاكمون عـادة قبل بداية المباراة اذ يحاول كل ملاكم أن يبث الرعب فى قلب خصمه أو منافسه كما أنها وسيلة يحـاولون بها لفت نظر الجمهور وشده لحضور المباراة •

وتحت عنوان « مثل فى التواضع والخبرة بالدراسـة » رد العقاد على كلام الدكتور محمد كامل حسين (٦٢/١١/٢٢) وراح يكيل له الصـاع صاعين حيث يقول « سئلنا رأينـا فى التشابه بين مذهب الكسندر وكتاب « وحدة المعرفة » للدكتور محمد كامل حسين فقلنا أن التشابه تام •••• وأحلنا الرد فى أمر الاقتباس وتوارد الخواطر الى الدكتور محمد كامل حسين مجاملة له وابقاء على كرامته ، اذا شاء أن يبقى عليها •

وبعد أسبوع من ظهور اليوميات نشر الدكتور رده فاذا هو يقابل منا هـذه الرعاية بما يدل على حقيقة حظه من البحث

والعلم والخبرة بالدراسات الفكرية كما يدل على حقيقة حظـه من أصول المناقشة والمناظرة •

ثم أخـذ يعدد النقاط التى استوقفته فى كـلام الدكتور محمد كامل حسين استعدادا لتفنيدها والرد عليها •

ومما قاله الدكتور عن صمويل الكسندر : « أنـا لا أعرف هذا الصمويل الكسندر والذى يصفه العقاد أنه أبو فلسفة بعينها فى انجلترا « وفى موضع آخر » ولم آعثر على معلومات عن هذا العلم من اعلام الفلسفه الانجليزية ودائرة المعـارف البريطانيـة لا تعرفه ولا أدرى هـل هو فيلسوف لجـأ الى العلوم ليثبت نظرياته أم هو أصلا عالم طبيعى امتد به التفكير العلمى الى أن شمل المباحث الفلسفية » وقال عن فلسفته أيضا :

« ولو قرأ الأستاذ العقاد الكتاب كله (وحدة المعرفة) وعكف على تفهمه ودرسه درسا دقيقا وهو كتاب ـ عسير ـ لرأى فيه أشـياء كثيرة لا يمكن أن تكون فى كتـاب صمويل هـذا » •

ثم يستطرد العقاد قائلا :

« أما نصيبنا نحن من تحقيق اليحاثه وأسلوب مناقشاته فمنه ـ أن العقـاد ليس صـادق الحس فى البحوث العلميـة وما يقوم عليها ••• » •

ومنه « وانى أرجو الأستاذ العقاد رجاء حارا أن يقرأ كتابى (وحدة المعرفة) قراءة درس واستيعاب • وهو قد لخص كتاب صمويل وقد يرى أن يلخص كتابى أيضا وهو قد شرح فلسفة صمويل فى كتابه عن الله ولعله يشرح فلسفتى فى كتابه عن نفسه وهو الكتاب الذى سيظهر قريبا وسيكون عنوانه من غير شك ــ التواضع » •

ولم يكن من طبيعة العقاد وهو مفكر شديد الاعتداد بالنفس أن يسكت على من يتهمه بنقص الحس أو البصيرة فى أى شأن من شئون الفكر والعلم • لهذا أخذ بعد أن استعرض الاتهامات فى الرد عليها بنفس اللهجة الشديدة :

« ونحن اذن نفتقر الى التواضع الذى يتحلى به الدكتور ، والى تمحيص الدعاوى العلمية على طريقته التى يجيدها • ومنها ادعاؤه على كتاب يزعم أنه لم يقرأه أن يستحيل أن تكون فيه تلك الآراء التى لا يجوز أن تخطر على بال أحد سواه ••• !

« وبغير دليل على الاطلاق يقول الدكتور ما قاله : لكننا ــ بدليل من كلامه وشاهد من قلمه على نفسه ــ نقول أن الدكتور لا يحسن البحث والدعوى ولا يحتاج الى شىء كما يحتاج الى التواضع ، ولا يحق له أن يخوض فى مسائل الفلسفة لأنها شىء غريب عن تجبير العظام •

فالدكتور المجبر لم يمارس البحث مراسا طويلا ولا قصيرا ، والا لما فاته أن يعرف صمويل الكسندر الذى عرفناه وشرحنا مذهبه منذ أكثر من ستة عشرة سنة ، ولو كان ممن يمارسون البحث لما قال عن صمويل الكسندر « هذا الصمويل أو صمويل هذا » أو أنه لم يعرفه ولم يسمع به وليس بين الفلاسفة المعاصرين من هو أشهر منه فى عالم الثقافة الأوربية » .

« ومن طريقته التى نجانا الله منها فى حسن البحث أنه يزعم أن دائرة المعارف البريطانية لا تعرف « صمويل هذا » وهى قد عرفته وقالت عنه أنه أحد الفلاسفة القلائل الذين تمموا للفلسفة فيما وراء الطبيعة مذهبا كاملا ينسب اليه » .

« ففى أول الصفحة (٥٧٦) من أول جزء فى الدائرة يقول محررها الفلسفى : أنه واحد من الفلاسفة البريطان القلائل فى النصف الأول من القرن العشرين أنشأ مذهبا كاملا محيطا فيما وراء الطبيعة .

ثم يقول أنه نال جائزة جرين فى الفلسفة الأخلاقية ، وتطور اشتغاله بالفلسفة فوجد الحاجة ماسة الى الربط بينها وبين علم السيكولوجى ... وفى خلال سنتى ١٨٩٠ ــ ١٨٩١ درس السيكولوجية التجريبية فى ألمانيا على الدكتور هوجو منستربرج وفى سنة ١٨٩٣ بعد عودة قصيرة الى أكسفورد عين أستاذا

للفلسفة بجامعة مانشستر وكان واحدا من نخبة أساتذتها النابهين ... ثم لخصت الدائرة فلسفته فقالت ما ترجمته حرفيا :
« ان التقاء الزمان والمكان عنده كان رحم كونى تتولد فيه طبقات من الكائنات تشتمل على خصائص المادة والحياة والعقل كل منها تحيط بما قبلها وتدل على اتجاه الى ما هو فوقها والربوبية دائما هى الطبقة الثانية بعد الطبقة التى اتجه اليها التطور الكونى » .

« وقبل أن ننتقل الى التعقيب على ما تقدم نقول : ان الأفكار التى سمح الدكتور محمد كامل حسين تحقيقه العلمى أن يقول باستحالة ورودها فى كتاب الفيلسوف الكبير قد احتواها كلها تلخيص دائرة المعارف البريطانية التى يقول الدكتور انها لا تعرفه فلم يكن مستحيلا أن يشرح الكسندر تفاضل القوانين من المادة الى العقل قبل أن يبتكر الدكتور — على دعواه — هذا الترتيب فى دراسة المعرفة والتطور كما قال على الصفحة الثالثة .. « وهى قوانين المادة ثم تتلو ذلك قوانين الحياة . ثم تأتى بعدها قوانين الانسان وهى أخص وأرقى .. » .

« وفى صفحة ١٦١ — أى فى أواخر الكتاب يقول الدكتور « ان لكل شيء ربا وأن رب أى شيء هو القوة أو القانون الذى يعلوه . وقد يكون فى هذا المذهب مفتاح نظرية الربوبية وموضعها العلمى من النظام والكون » .

« فمن صفحــة (٣) الى صفحــة (١٦١) فى كتــاب وحدة المعرفة يحكى الدكتور مذهب الفيلسوف ولو اكتفينا فيه بهذه الخلاصــة فى دائرة المعارف البريطانيــة التى تعرفه ، ولكن العجب العجاب انما يدرك القارىء من المراجعة بالكلمة والعبارة لمــا قد شرحه ذلك « الصمويل » على حد قول الأستاذ المتواضع محمد كامل حسين ! وبالدليل القاطع يثبت الى الآن نقيض كل ما ادعاه الأستاذ لنفسه وادعاه علينا .

« فليس هو طويل الدراسة للمباحث الفكرية لأن من كان طويل الدراســة لها لن يبلغ من جهله بفلسفة القرن العشرين أن يخفى عليه مذهب المثالية التجريبية وهو بهذه المكانة من عــالم الثقافــة » .

« وليس الدكتور بالرجل الذى يعلمنــا أدب التواضــع لأن المتواضع يذكر الحياء والواجب حين تحثه نفسه باحتقار هذا « الصمويل » لغير ذنب جناه غير فلسفته التى يتعالم بها الســيد الهمام » .

وليس الدكتور محققــا فى بحثه وتمحيصــه لأن الباحث المحقق لا يدعى على دائرة معارف تملأ الأرض أنها خالية من ذكر الفيلسوف ، وهى تنوه بشأنه هــذا التنويه .

ثم ختم العقاد مقاله قائلا :

« ولا نريد بعد هذا كله أن نتعلم على يد الدكتور درسا فى التواضع لأننا نحس بعد مقالاته ودعاويه أننا بحاجة شـديدة الى درس آخر يعوزنا الآن •

« ذلك الدرس هو الكبرياء التى كان ينبغى أن نتعلمهـا ليعلم الدكتور كيف يتواضع أمام من هم أخبر منه بما يدرسون، ولعله يراجع برنامج الدروس اللازمة لنا وله بعد استيفاء هـذا البحث فى اليوميات » •

وجاءت اليوميـات أشـد قسـوة فى الرد على ما قـاله كامل حسين • بدأها العقاد قائلا :

« ليس فى وسع كامل حسين أن يجزم باستحالة نسـبة « وحدة المعرفـة » الى هـذا الصمويل « لأنه قـد أصبح من الاشاعات الذائعة التى نقلت عنه الى لغتنا فى كتاب «نحو فلسفة» علمية للدكتور زكى نجيب حيث يقول فى مقدمته عن صمويل :

« وهو فيلسـوف تجريبى تركيبى معـا وهو يعتقد بأن الفلسفة لا تختلف عن العلم الا فى كونها تبحث فى مشـكلات أهم من مشكلات العلم لكنهمـا معاً يدوران حول موضـوعات بعينهـا » :

« والدكتور محمد كامل خسين مولع باعادة ابتكار الآراء التى يجهلها من آراء هـذا الفيلسوف خاصة ، ولكنه يطبقها

كذلك على طريقة مبتكرة بحق ، لا يستطيع أن ينازعه فيهـا أحد غيره ، لأنه يؤلف كتابا عن وحدة المعرفة ثم يقيم السدود بين أبواب المعرفة ويفرض الاختصـاص فى كل باب منها . ويحرم علينا ـ بصفة خاصة ـ أن نميز بين مذاهب المفكرين لأننـا لا نحسنها كما يحسنها هو بمعرفته الشاملة الكاملة ولا يجوز لنا أن نكتسب هـذا التمييز بعد خمسين سنة فى قراءة الفلسفة وعشرين سنة فى تأليف الكتب المستقلة عن الفلاسفة » .

وعن بحث الدكتور عن دائرة المعارف يقول العقاد .

« فدائرة المعارف أولا ليس مرجع المختصين فى الفلسفة لأنها مرجع عام للمعارف البشرية تلم كل معرفة منها بما تتطلبه الحاجة الى المراجعة العامة . وانما يعتمد المختصون على دائرة المعارف الفلسفية وعلى أمهـات كتب الفلسفة وعلى مؤلفـات الفلاسفة أنفسـهم أو شروح المعلقين على مؤلفـاتهم ولو كان الدكتور يحسن البحث عن مراجعه لمـا احتاج الى دائرة المعارف البريطانية فى هذا الموضوع » .

« ودائرة المعارف ثانيا : لم تهمل ذلك الصمويل كما يقول الدكتور لأنها ذكرته ولخصت مذهبه فى أول جزء من أجزائهـا وأحدث طبعة من طبعاتها فاذا كان الدكتور لا يحسن أن يستخرج موضوعا فى الدائرة التى يراجعها « العموم » فليس فى نقص القدرة على البحث غاية بعد هـذه الغاية ، واذا كان الدكتور

يجزم باهمال الدائرة لأنه يملك طبعة منها غير الطبعة الحديثة فليس للتعجل بالاثبات والانكار غاية بعد هذه الغاية » .

« على أن الدكتور يقع فى محظور أشد من هذا المحظور اذا قال أنه اعتمد على الطبعة الرابعة عشرة ولم يعتمد على أحدث الطبعات » .

فهذه الطبعة لم تكتب للفيلسوف صمويل الكسندر ترجمة حياة لأنها صدرت وهو بقيد الحياة . ولكنها ذكرته فى عدة مواضع وخصته بقسم مستقل من تقسيماتها لتاريخ الفلسفة لخصت فيه مذهب الفيلسوف عن تفاضل القوانين باسمه التى يقول الدكتور أنه « ابتكره » بعد ذلك بثلاثين سنة يقول بكل شجاعة أنه يقترحه .. نعم يقترحه لأول مرة ويسميه لأول مرة ولايمكن ـ طبعا ـ أن يكون أحد قد ابتكره قبله وقبل هذه المرة . ونعنى به اسم الهيرارشية باللغة الانجليزية وباللفظ الذى نقله الدكتور الى اللغة العربية كما هو حيث قال ص ٥٧ :

« يقوم البناء الذى اقترحه للمعرفة على نظرية تفاضل القوانين ـ هيرارشية القوانين ـ » .

أما الذى قالته دائرة المعارف فهو كما جاء فى صفحة (٧٥٨) من الجزء السابع عشر بترجمته الحرفية :

« ان الموجودات تنبثق فى أحوال معينة وتتكون منها

هيرارشية .. » الى أن قالت : « وبهذه الهيرارشية تكون الموجودات العليا لها صفات ما دونها ولكنها تتصرف فيها بخلاف تصرفها ، فهى تستمتع بصفاتها العليا باطنيا ومباشرة . ولكنها تدرك صفاتها الدنيا خارجيا على درجات ، ولنا بالقياس العقلى أن نقدر وجود صفات أعلى من ذلك الربوبية ، فكما أن الوعى المدرك هو أعلى صفة فى الانسان كذلك الربوبية أعلى صفات الاله وكيانه هو الوجود كله يترقى الى الوجود الالهى ،ولما كان الزمن لا يبلغ تمامه — أو نهايته — أبدا فالصفات الأعلى فالأعلى لاتزال منبثقة على الدوام . ولايزال العالم فى تطلعه الى الربوبية يحفز فينا الشوق الدائم الى الله .

ثم يتساءل عما كتبه الدكتور ويستطرد :

« ونعود الى كتاب وحدة المعرفة التى هى من مبتكرات الدكتور لحساب هذا الصمويل أيضا ، فلا نجد فى فصل منه فكرة واحدة لم ترد فى « مذهب الفيلسوف المجهول » لدى الدكتور : ليس هناك عبارة واحدة عن التطور الزمنى وعن ماهية الزمن وعن التفكير الثنائى ، وعن أصالة الصفات أو الأخلاق البيولوجية ، وعن القوانين والحوادث ، وعن الحياة والوعى ، وعن الربوبية والاله ، لم يشرحها الفيلسوف المجهول ويتبرع له الدكتور بابتكارها مرة أخرى بعد سنين » .

ثم يضرب العقاد شواهد على ذلك مما لخصه فى كتابه عن « الله » حيث يقول :

« فى صفحة ٢٥٣ لخصنا مذهب الفيلسوف فى درجات الكائنات وتفاضلها بالصفات ، وخلاصته كما ترجمناه يومئذ قبل أن نعلم أن الدكتور سيتكره واننا سنقيم الحجة عليه :

« اذا حدثت الحركة فذلك هو اتصال الزمان والمكان . واذا وجدت الحركة وجد الاشعاع وتسلسلت الأشياء المادية من هذا الاشعاع . وهى تبدو على درجات ، فأدنى طبقات المادة بعد صدورها من الفضاء والزمان هى المادة ذات الخصائص الأولية : وهى الحجم والشكل والعدد والحركة ، ثم تعلوها طبقة الخصائص التى تترقى الى اللون والصوت والرائحة ودرجة الحرارة ، أو بعبارة أخرى أن الخصائص الأولية تدرك بجميع الحواس ، وأن الخصائص التالية لها تحتاج الى التخصيص فتدرك كل منها باحدى الحواس ، ولا تتم الخاصة للشىء الا مع اتصاله بشىء آخر ، كما يتم اللون مع اتصال الشىء بالنور ، ويتم الصوت مع اتصال الشىء بالهواء فلابد له فى هذه الحالة من بعض التركيب .

وخلاصة الفيلسوف عن النظام والمنظم كما يقول العقاد هى :

« اننا اذا استبدلنا كلمة النظام بكلمة المنظم فلا نعدو بذلك أن نسمى هـذه الحقيقة الواقعة : وهى أن العالم يجرى على نسق يخرج منه النظام . وفى وسعنا أن نسمى العالم الذى تدركه على هذا النحو ـ الها » .

ثم يقول العقـاد « وفى صفحة (٢٥٤) نلخص كلامه عن العقل والربوبية وهو : ان الكون لايزال يعرض لنا انبثاقا بعد انبثاق بسلسلة من الكائنات الموجودة يتسم كل منها بخصائصه وصفاته ، وأرفع الصفات المعروفة لدينا هو العقل أو الواعية . والاله هو الكائن الذى يعلو أعلى ما عرفناه » .

« وتتمة هذا الرأى قوله أنه « لمـا كان الزمان أبديا بغير انتهاء وكان هو مصـدر النماء والارتقاء فليس فى استطاعتنا أن نتخيله واقفا عند اخراج تلك الكائنات المحدودة التى تتسم بسمة خاصة أو الواعية ، ولابد لنا من أن نرسل الفكر على الاتجـاه الذى ترسمناه من تجـارب الانبثاق السابقة التى تمخضت عن الصفات الرفيعة ، فان فى الزمان والفضـاء باعثا يدفع مخلوقاتهما الى طبقة أرفع فأرفع كما دفع بها الى طبقة العاقلة أو الواعيـة وليس فى العقل ما يدعونا الى الوقوف عند حد من الحدود لنقول انه هو الحـد الأقصى لمـا يبثقه الزمـان من الآن الى أبـد الأباد ـ بل يكرهنا الزمان نفسه على انتظـار مولود آخر من مواليد ، ومن ثم يسوغ لنا أن نتتبع سلسلة الصفات ونتخيل تلك

الكائنات المحدودة التى سميناها ملائكة ، وهى كائنات نستمتع بوجودها الملائكى ولكنها تتأمل العقل على نحو يعجز العقل عنه كما نرى العقل يتأمل ما دونه من مراتب الحياة والموجودات السفلى . وعلينا أن نسأل كيف تكون العلاقة بين هذه الآلهة المحدودة المسماة بالملائكة وبين الاله الذى ليست له حدود ؟ فالاله اذن هو الطبقة المثالية التى تعلو طبقة العقل والواعية والألوهية صفة تتولى الصفات التى دونها من طبقة العقل الذى يقوم هو أيضا على ما دونه من صفات وينبثق عندما تبلغ الكائنات مبلغا مقدورا من التركيب والتنسيق .

ويمضى الفيلسوف فى التقدير والتخمين فيقدر أن الاله الأعلى الذى ينبثق عنه العالم هو من معدن الروح والعقل لأنهما الطريق التى تأدينا منها اليه ولكنه يشارك الموجودات فى خصائصها الكونية كما يشترك الانسان العاقل فى خصائص المادة وخصائص سائر الأحياء على نحو من الأنحاء . (ص ٢٥٥) .

وفى الفترة بين ظهور مقالى العقاد نشر الدكتور زكى نجيب محمود مقالا يؤيد فيه العقاد ويتهم الدكتور كامل حسين بتلخيص كتاب صمويل .

وقد روى أنه تحدث فى ندوة اذاعية من ثلاث سنوات عقب ظهور « وحدة المعرفة » وقال فيها :

« ان الدكتور كامل حسين مشكور بغير شك على تقديمه هذه المادة لقراء العربية ، لكننى كنت أتوقع أن يشير الى كتاب « المكان والزمان والربوبية » لصمويل الكسندر لعل قارئا مستقصيا يحب أن يتوسع فى الموضوع بعد أن قرأ خلاصة له ، وأرجح جدا أن يكون الدكتور قد سمع تلك الاذاعة عندئذ — وعندى شاهد على ذلك — لكنه سكت عن الموضوع حينئذ ولعل مرجع سكوته اذ ذاك هو « ان صاحب القول لم يكن فى رأيه بذى خطر » .

ثم يقول انه دهش حين رد الدكتور كامل حسين على العقاد الذى يؤكد فيه انه لم ينقل حرفا وانه المبتكر الأصيل « وبعد أن يفند التشبيهات التى ساقها الدكتور كامل حسين يستبعد ان يكون هذا التشابه كله مصادفة عابرة والعينان هما العينان والشفتان هما الشفتان » .

هذه كلمة المتخصص :

وتحت هذا العنوان قال الدكتور زكى نجيب : « ان الدكتور كامل حسين ليهمه أن تكون الكلمة للمختص ، فما هى مادة الكتاب التى تريد اختصاصا ؟ انه ليس علما خالصا ، ولا هو أدب خالص ، انما هو كتاب فى « فلسفة العلم » وكاتب هذه السطور قد نال درجاته العلمية فى فلسفة العلم هذه بالذات ويأكل خبزه منها كما يأكل الدكتور كامل خبزه من طب العظام ، فلى من

الحق فى ابداء الرأى فى مسألة تتعلق بفلسفة العلم مثل ما له من الحق فى ابداء الرأى فى مسألة تتعلق بطب العظـام ولو طالب بأكثر من هذا كان خارجا على المبدأ الذى فرضه ، وهو أن يكون الرأى للمختص أولا ولغيره ثانيا .

والرأى الذى لا أشك فيه لحظـة واحدة هو أن كتاب (وحدة المعرفة) ـ فى أوصوله وفروعه ـ هو تلخيص مفكر مجتهد ، قد يقف عند الأصل كما هو حينا وقد يحـاول التعديل أحيانا ، فاما الاطار الذى يقوم عليه البناء كله فالدكتور متأثر فيه بصمويل الكسندر ، وانه ليتساءل فى رده على الأسـتاذ العقاد هل جاء فى كتاب صمويل هـذا شىء عن « نظرية القوانين والأشياء ، وتفاضل القوانين ، وعلاقة القوانين العليا بالقوانين الدنيا وان العليا تعرف تصرف القوانين الدنيا ولكن القوانين الدنيا لا تعرف من العليا الا وجودها ... الخ » وينفى الدكتور بشدة أن يكون شىء من هذا كله قد ورد فى هـذا الأصـل المزعـوم .

« ثم يشير الدكتور زكى نجيب محمود الى الفصل الثانى من الجزء الثانى من كتاب صمويل عن ترتيب المستويات ويقول أن كامل حسين لخصـه فى ثلاث صفحـات (٦٧ ـ ٧٠) فيرد فيها قوله » .

« ان كل نمط جديد من أنماط الوجود حين ينشأ يكون

من الممكن التعبير عنه تعبيرا كاملا ، تعبيرا يستنفده ولا يترك فيه بقية ، بلغة المرحلة الأولى ، وبالتالى فهو يعبر عنه ، بلغة المرحلة الأولى ، وبالتالى فهو يعبر عنه عن طريق غير مباشر — بلغة المراحل الدنيا جميعا — فنعبر عن العقل بلغه العملية الحيوية ثم نعبر عن الحياة بلغة العملية الفيزيا كيميائية ، ونعبر عن صفة الحس — كاللون بلغة المادة وما بها من حركات ثم نعبر عن المادة ذاتها بلغة الحركة . فمما هو أدنى قد يتصف جزء منه بتركيبة معقدة من الصفات تجعله كأنما هو كائن ذو كيفية جديدة . يعلو بها على بقية مستواه ، فيصبح ذلك الجزء بالنسبة الى تلك البقية بمثابة العقل أو بمثابة الصورة من المادة ، أى أن الأعلى يكون بمثابة القانون الأعم الذى يشمل القانون الأدنى الذى هو مجسد فى الشىء قبل أن ينشأ عنه ذلك الجزء الذى امتاز بكيف جديد . فلو بدأت من بسائط الكون الأولية (وهى عنده — المكان زمان المجرد) . تجد طريقا متصلا فى صعوده من نمط أدنى الى نمط أعلى ، بحيث يكون لكل نمط أعلى قوانينه التى تشمل قوانين الأدنى ، لكن قوانين الأدنى لا تستوعب قوانين الأعلى .

« وخذ الفصل الرابع وعنوانه (العقل والمعرفة) لترى كيف يفصل فيه القول تفصيلا فى علاقة الأعلى بالأدنى حتى اذا ما جئنا للكتاب الرابع الذى يقصر البحث فيه على (الربوبية) والذى يشرح الفكرة القائلة « بأن الأعلى هو رب الأدنى يقرر له مساره

وطريقه ، وصلنا الى المرجع الحاسم الذى يقرر العلاقه بين الأصل وصداه فاقرأ فى نهاية كتاب الدكتور كامل حسين (صفحه ١٦١) قــوله :

« سبق أن بينا أن لكل شىء ربــا وان رب أى شىء هو القوة أو القانون الذى يعلوه فيؤثر فى حياته ... (لنعلم أن ما قد سبق له أن بينه فى الكتاب هو نفسه الذى بينه كتــاب المكان والزمان والربوبية » .

ويمضى الدكتور زكى نجيب فى تأكيده هذه التهمة قائلا :

« أما بعد فلو قال الدكتور كامل حسين انه (استوحى) ذلك الكتاب لقلنا : قد يكون ذلك ، أما أن ينكر كل علاقــة له بالكتاب وصاحبه فأمر يستحيل تصديقه ، ولا عبرة بعد ذلك ، أيكون صمويل الكسندر ذا مكانة عالية أو خفيضة فى تاريخ الفكر المعاصر ، لأن قيمة الرجــل لا شأن لها بما نحن بصــدد الحديث فيه . فقد يكون أتفه التافهين ومع ذلك ربما عن لاحد أن يأخذ عنه ، بل ربما كانت العلة فى السكوت عن ذكر المصدر الأصــيل هى انه فى رأى الناقل مصــدر مظلم مجهول لا تراه الابصــار » .

لقد حرصت على تقديم هــذا الملخص الوافى للمقــالات المذكورة لا نقل للقارىء جو الحدة والعصبية الذى سيطر على هؤلاء المتحاورين لتحول الخلاف العلمى الى معركة شخصــية

يؤججها الكبرياء ، الذاتى والاعتداد بالنفس خصوصا من جانب العقاد : ولا نستطيع أن نلومه على هـذه اللهجـة فقد ابتدأه الدكتور محمد كامل حسين بالهجوم حين تباهى عليه بتخصصه فى دراسة العلوم ثم اتهمه بعدم القدرة على التمييز فى المسـائل العلميـة .

كذلك كان اعترافه بعدم معرفة صمويل الكسندر وقوله بأن دائرة المعارف البريطانية لا تعرفه نقصا فى المعرفة ليس له ما يبرره بالنسبة لعالم يتصدى للبحث فى هـذه الأمور .. فقد كان يجب عليه مراجعـة تاريخ الفلسـفة والتعرف على ما قاله الفلاسفة فى هـذا الجانب الذى يتعرض له . ولو صحت رواية الدكتور زكى نجيب محفوظ بأن الدكتور محمد كامل حسـين قد سمع رأيه فى الاذاعة عن علاقة كتابه بفلسفة صمويل لكان الأمر أدهى وأمر . فلماذا لم يبحث عن كتاب صمويل الكسندر ويقرأه ويعرف مواطن التشابه والخلاف على حقيقتها . واذا تعذر عليه الحصول على الكتاب فلماذا لم يستوثق من الدكتور زكى نجيب ويتبين كل جوانب الأمر .

فالتشابه بين كتابه وأفكار صمويل موجود على النحو الذى ذكره الأستاذ العقاد والدكتور زكى نجيب محمود . وهو تشابه فى الأفكار الأساسية يلمسه كل من يقرأ مقدمة الطبعة الثانيـة من كتاب صمويل الكسندر (المكان والزمان الربوبية) التى صدرت سنة ١٩٢٧ أثناء وجود الدكتور كامل حسين فى انجلترا

يدزس للحصــول على الدكتوراه ، وبالذات كلام صمويل عن المعرفــة •

وأنــا استبعد أن يكون الدكتور كامل حسين قد نقل من كتاب صمويل لأنه لو عرف صمويل لمــا قال أن دائرة المعارف البريطانية لا تعرفه وأوقع نفسه فى هــذا الحرج الشــديد •• وأغلب ظنى أن المسألة مجرد توارد خواطر لأن هذه الأفكار كانت مشاعة تثير اهتمام العلماء والفلاسفة فى الفترة التى أعقبت الحرب العالمية الأولى •

وبعد أن هدأت المعركة قرأ الدكتور محمد كامل حسين كتاب صمويل الكسندر وقارن بينه وبين كتابه فى مقال عنوانه « حول وحدة المعرفة » نشر بمجلة « المجلة » (يناير ١٩٦٣) واعتذر فيه عن جهله بصمويل الكسندر •• وقال انه رجل فلسفة يعنى بالمغزى والقيم أما البيولوجيــا فتعنى بوســيلة التطور (والميكانزم) التى يتم بها ، والكسندر جعل للجمال فلسفة عالية أما هو فقد جعل الجمــال والحب عملية فسيولوجيــة مخيــة الكترونية ، كما أنه رد جميع الفضائل والمعنويات الى أســاس طبيعى محتمل فى فسيولوجيا المخ •

كما اعترف بأن أكبر وجوه التشابــه بين الكتــابين هو استعمال عبارة (هيرارشية القوانين) وقال انها كلمــة معروفة

منذ القدم يتعلمها البيولوجيون فى بداية دراستهم • وليست من ابتكار الكسندر • ولم تكن الالكترونات فى كتاب الكسندر سنة ١٩٢٧ قد بلغت ما بلغته اليوم من تقدم (كما وضح فى « وحدة المعرفة ») ١٩٥٨ ثم قال « وعلاقة هيرارشيتى القائمة على الذرة والالكترونات بهيرارشية الكسندر صمويل القائمة على النسبية كالعلاقة بين النسبية والجاذبية ، والنسبية تشمل الجاذبية وهى أثبت أصولا وأخصب » •

ثم حدد نقاط الأصالة فى « وحدة المعرفة » على النحو التالى :

١ ــ البحث فى أسباب تفرق أجزاء المعرفة •

٢ ــ نظرية الهرم المقلوب وصفا للمعرفة •

٣ ــ تناول العقل من حيث هو جهاز التفكير أو ترمومتره، وبحث صفاته التى تتعلق بالمعرفة لا فى كنهها •

٤ ــ تصنيف مذاهب التفكير الى خرافى علمى ودينى فلسفى •

٥ ــ حملته على العلة الغائبة •

٦ ــ رفض أن يكون مبدأ تنازع البقاء والبقاء للاصلح والاختيار الطبيعى هو السبب فى التطور • لأن هذا

لا يفسر لنا بحال من الأحوال التشابه بين دم الانسان ودم القرد فى تجربة لا علاقة لها بهذه المسائل يتبين منها أن العلاقة بين دم الانسان ودم القرد خاصية عميقة جدا .

ثم انهى مقاله قائلا : أليس خيرا من ذلك كله أن ندع كتاب « وحدة المعرفة » ومؤلفه فليس هو آخر كلمة فى الموضوع وأن يتفضل أحد مفكرينا فيبدى رأيا أصيلا فى المعرفة وهل يمكن توحيدها ، وهل يكون هذا التوحيد عن طريق النسبية كما فعل الكسندر أم عن طريق الذرة والالكترونات (كما فعلت) أم عن طريق ثالثة يكشفها لنا ويكون له من الأمة خير الثناء .

على أن أهم ما جاء فى هذا المقال الأخير هو اعتراف الدكتور كامل حسين بتاثره بكتاب أوسبنسكى وهو يعرب عن دهشته من ناقديه لتركيزهم على كتاب الكسندر فقط قائلا : « على انى لا أدرى لم حدد الناقدون كتاب الكسندر بالذات ، وهناك كتب أخرى تتناول الموضوعات نفسها بطريقة مماثلة تماما لكتابه . ومنها كتاب أعرفه وتأثرت به ، وهو كتاب أوسبنسكى Tertium Organon فليست دعواى انى لم أعرف الكسندر ناشئه عن الرغبة فى دعوى الابتكار ، ولكنها الواقع . وبهذه المناسبة أقول أن موضوعات أوسبنسكى وموضوعات الكسندر متشابهة الى أقصى حد ، ولم يقل أحد أن أوسبنسكى نقل عن

الكسندر ، لأن هــذا النوع من النقد فى مثل هذا المجــال لا يقام له وزن .. والخبراء لاشك يقدرون ما بين الكتابين من فروق دقيقة » .

ثم يضيف الى ذلك قوله :

« وما شأن هذا كله وأنــا أعترف فى كل موضع من الكتاب انه ليس فيه معلومات جديدة ، ولا حقيقة واحدة جديدة ، وأن الغرض منه بسيط جدا هو (تفنيطة) جديدة للمعلومات المعروفة يجعل نظامها أوضح . وهل يسأل الانسان فى هذا العصر من أين أتى بمعلوماته عن الذرة والالكتورنيات والتطور » .

ولاشك أن هــذه هى كلمة الفصل فى الموضــوع كله . فالتشابه موجود بين الكتابين بل وبين كتاب أوسبنسكى أيضا وبدرجات تنفى وجود النقل أو الاقتباس التى ركز عليها العقاد وزكى نجيب محمود .

ومع ذلك فالاختلاف موجود أيضــا فى بعض النواحى ، فصمويل الكسندر فيلسوف امتد اهتمامه الى العلوم الطبيعيــة وكامل حسين جراح عظــام امتد اهتمامه الى ميــدان الفلسفة وكتاب صمويل يقع فى مجلدين وتزيد صفحاته على السبعمائه ، بينما كتاب (وحدة المعرفة) لا يزيد على مائتى صفحة ويتميز بالتركيز وحسن التنسيق .

كذلك لا يخلو هــذا الكتاب من اضافــة ، فهو يتحدث عما أكده العــلم بالنسبة لنظريــة التطور وعن طبيعــة المــادة

السنجابية المكونة لخــلايا المخ وشرحه لطبيعة الذاكرة ووظيفتها وأهمية ذلك بالنسبة للعقل ووظيفته الفكرية وعلاقــة ذلك كله بالأصل الطبيعى للفضائل والأخلاق •

ولاشك ان تقديم مثل هــذا الكتاب يعد اضافة عظيمــة للمكتبة العربية والفكر العربى ولا يقل من أهميته ما قيل عن التشابه بل يزيد من قيمة ما فيه من أفكار •• ومن هدفه العظيم لبناء المعرفة على أساس يتطابق فيه نظام المعرفة الانسانية مع القوانين الطبيعية المنظمة للكون •

لقد أقام ابن رشد فلسفته على أســاس الفلسفة اليونانية وفلسفة أرسطو بالذات فهل قلل هذا من دوره فى مسار الفكر العربى والاسلامى !!!

ومن المؤسف حقا أن يدور هذا النقاش حول مسأله وجود الشبه بين (وحدة المعرفة) وفلسفة صمويل الكسندر دون أن يتطرق الى جوهر الكتاب ذاته •• كذلك ضاع جهد المتحاورين فى هــذه المسائل الشــكلية دون أى اهتمام بمضمون ما قاله الدكتور محمد كامل حسين وما أضافه •• وقد أضاف حقا ، اذ نظر الى نظرية التطور نظرة جديدة فى ضوء ما حققه العــلم من اكتشافات فى علوم الطبيعة والبيولوجيا •• مما يؤكد صحة هذه النظرية •

أما أصالته الحقيقية فتكمن فى ايمانه بهذه النظرية ايمانا قويا وتطبيقها كمنهج فكرى فى كل أبحاثه تقريبا •

الوادى المقدس ..
وحديث الى النفس

يتميز هـذا الكتـاب على غيره من مؤلفـات الدكتور محمد كامل حسين ، ببساطة اللغة وعذوبتها . فلا تكاد تمضى فى قراءته حتى تحس برشاقة الكلمـة وعذوبة العبارة وصفائهـا فتحسب أنه كتاب خواطر سجلها المؤلف فى لحظـات التأمل ، دون أن يسبقها تخطيط أو تدبير . ولكنك تفاجأ بعد الفصـل الأول أنك قد انزلقت الى الأعماق لتسمع وتناقش أخطر مشاكل النفس الانسانية فى علاقتها بالآخرين وبالكون عموما . واذا بك تفاجأ بأن المؤلف يعرض أمامك نظرية جديدة هى خلاصـة كل أبحاثه ونظرياته العلمية السابقة .

لكن هذه النظرية الجديدة هى فى الواقع أهم النظريات وأخطرها . كما أنها أكثرها عمقا وغموضا . ولعل هذا ما دفع المؤلف الى تغليفها بهذا الثوب البراق ليحملك على أجنحـة العبارات الرشيقة حتى لا يصـدك الملل أو ترهقك المعاناة وراء الأفكار حتى اذا بلغت النهاية دون أن تبلغ اليقين استوقفك فى لباقة عظيمة وفى شبه اعتذار رقيق ليقول لك :

« تحدثت اليك طويلا ، وعرضت عليك أمورا كثيرة تتعلق

بنفسك ، ولم أقف لأسأل من أنت ؟ أما وقد انتهيت من هـذا الحديث فأحسب انى فى الواقع كنت أتحدث الى نفسى » .

وبفضل هذه اللباقة النادرة ، قال المؤلف كل ما عنده دون حرج . وناقش أخطر قضايا الانسان وأكثرها اثارة للحساسيات دون أن يحتج عليه أحد . وبذلك نجا من تهمة الكفر والمروق ، وكيف يتهم انسان يتحدث الى نفسه . أو ربما كان هنـاك سبب آخر وهـذا ما يوضحه الأستاذ فتحى رضـوان (مجلة الثقافة ـ العدد ٤٣) .

« فان كتاب (الوادى المقدس) يجب أن تقرأه لا لتستمتع بعمل أدبى جيد ، وانما تقرأه بوصفه سيرة ذاتية تعرض هموم وهواجس ووساوس وشكوك ومخـاوف وحيرة محمد كامل حسين . وحين تتناوله بهذا الوصف ، يرتفع قدره ، لأنك ستجد فى كثير مما قاله وسجله ، أشياء خطيرة ومصارحات جريئـة ، مرت غير مفهومة فلم تثر عليه ثائرة المحافظين ، ونجا من تهمة التجديف فلم توجه اليه » .

والواقع ان الكتاب فى هـذه الناحية لا يشـذ عن كتبه الأخرى الهامة . ففى « التحليل البيولوجى للتاريخ » كان يبحث فى القوانين العامة المحركة لحركة الأحداث التاريخيـة ، وفى « وحدة المعرفة » شرح قوانين التطور الطبيعى التى تؤدى الى

وحدة المعرفة وتكشف عن الأساس الطبيعى للضمير والفضائل .
وهكذا الأمر بالنسبة للوادى المقدس . انه بحث فى كشف الأسس
الطبيعية لتحقيق التوافق بين الانسان وبين نفسه ثم بينه وبين
الآخرين بل بينه وبين الكون حتى « تكون الطبيعة وجسمك
وعقلك ونفسك متوافقة توافقـا موسيقيا تكمل به السـعادة
الانسانية » .

ولكن كيف تتحقق هذه الحالة النفسية ، فهذا ما تبحثه
نظرية الوادى المقدس . وهى تستند أيضا على ما اكتشفه المؤلف
من قوانين التطور البيولوجى وكما فعل فى شرح نظرياته الأخرى،
فهو يفعل نفس الشىء هنا وبنفس الأسلوب بادئا بالبسيط ثم
المركب فالمعقد وهكذا حتى تبلغ الأمور غايتها . فما هو الوادى
المقدس هذا ؟

يقول المؤلف : « هو البقعة من الأرض ، وهو القطعة من
الزمن وهو الحالة النفسية التى تسمو فيها فوق طبيعتك وطبيعة
الأشياء ، فوق ضرورات الحياة ، بل فوق حدود العقل » .

وتحملك هـذه العبارات السهلة المطاطة الى ما بعدهـا
وما بعدها دون أن تمسك بمعانى محددة . ويظل هو يسترسل
« هو حيث يكون ايمانك قويا لا يشوبه شك . وحيث يحتوى
قلبك حب عميق خالٍ من كل غل أو حقد .. وهو حيث تهتدى

للحكمة والتفكير المستقيم » . وهكذا الى أن يقول « الوادى المقدس ، مملكة السماء ، الجنة : أمور ثابتة فى النفس الانسانية أصولها الايمان والخير والحكمة ، وميادينها الدين والحب والعلم » . وهنا تلمح لأول مرة أركان هذه النظرية السيكولوجية الجديدة .

وأول هذه الأركان أن أصول الجنة أو مملكة السماء ليست خارج النفس بل من داخلها ، وثانيها أن هذه الأصول ثابتة وهى الايمان والخير والحكمة ، وثالثها أن الطريق المفضى اليها هو الايمان والحب والعلم .

وحين تصبح الجنة داخلنا فما عسى أن يكون الايمان ، وما غايته وما هو مفهوم الدين الذى يشير اليه المؤلف ؟

وهذه أسئلة لابد أن تدور بخاطر كل من يقرأ هذا الكتاب . وحتى تفهم جيدا ما يعنيه المؤلف ، لابد أن تعرف موقعك من الوادى المقدس . وحياتك بالطبع أعظم ما يعنيك ، ولكنها فوق ذلك جماع القوى التى عملت فى الانسانية منذ الأزل . وليست الانسانية ما عمل الناس وما يعملون مجتمعين . وانما الانسانية تتبلور فى حياة كل فرد ، وفى حياتك أنت خاصة ، والعوامل التى تطهر بها الناس قديما تصلح أن تتطهر بها لو هيأت لنفسك سبيل الطهر ، وهذا ممكن ميسور : فالتطهر كما يقول

المؤلف نزعة فطرية فى الانسان . لأن الانسان ليس من طبعه الشر . وهو يستطيع بمجاهدة النفس أن يصل الى حالة الطهر . والطهر « ليس معنى خالصا . ولا هو عمل خالص . وانما هو معنى فى النفس يتمثل أعمالا » لكن الأعمال الطيبة لا يتم بها وحدها طيب الحياة ، الا أن تكون الحياة صادقة .

« والصدق هو أن تتسق الحياة وقوانين النفس البشرية . وقانون النفس البشرية الذى يفسد كل حياة لا تقوم عليه هو قانون التطهر . واذا لم يكن قوام حياتك الطهر فلن يقوم عوجها ما تكون قد حققت من أعمال طيبة » .

ومعنى هذا ان تنبع عواطف الخير والحب والايمان من داخل النفس ، فتكون مشاعر الانسان صادقة ، ومواقفه متسقة مع طبيعته فلا ينافق ولا يخدع ولا يساير الشر أو ينهار أمامه . ولعلنا نجد توضيحا أكثر لهذا المعنى فيما قاله الأنبا شنودة فى احدى المناسبات « أستطيع أن أقول ان عمل الخير ليس هو الخير .. وانما الخير الحقيقى هو محبة الخير داخل القلب . فالانسان قد يعمل الخير مضطرا . وقد يعمل الخير خوفا . وقد يعمل الخير تقليدا . ولكنه لا يكون خيرا فى الحقيقة انما الانسان الخير هو الذى يحب الخير فى عمق أعماقه حتى ان لم يعمله تصير نيته له عملا والأعمال بالنيات . الاجبار للخير يكون عبيدا يخضعون للسلطة . أما الخير الاختيارى

فيكون قديسين . ان يوسف الصـــديق كانت الخطيئة أمامه سهلة وتلح عليه .. وكان ربما يعاقب ان لم يرتكبها ، ولكنه فضل ألا يخطىء لأن محبة الخير فى قلبه كانت أقوى من اغراءات خفية . هذا هو الانسان الصالح الذى نريده » (١) .

وهذا النوع من الصدق هو الذى يعبر عن الفطرة السليمة التى جبل عليها البشر كما أشار الدكتور محمد كامل حسين ، وهى مناط تماسك الانسان النفسى والعقلى وشرط سعادته لكن مطلب الصـــدق دائما يحتاج الى ظروف مواتية حتى يعتاد الناس على الصدق وهـــذا يأخذنا الى مشكلة الحرية وشرط توافرها بالقدر الكافى لنمو الانسان نموا طبيعيا فى أى مجتمع .

وهذه النقطة قد تعرض لها المؤلف فى مكان آخر واعتبرها أساس حرية الضمير لكن المؤلف هنا تبعا لمنهجه الطبيعى يبدأ من الانسان الفرد ، ويرى أن الحياة الصادقة تقوم على السلم . بين الانسان وبين نفسه ويحققه الايمان . والسلم بين الانسان وبين الأقربين ويحققه الحب ، وبينه وبين العالمين ويحققه الخير .

وكى ينجح فى جهاده هذا لابد له من أن يبدأ باقامة السلم بينه وبين نفسه أولا قبل أن يستقيم الأمر بينه وبين الناس .

---

(١) من كلمة البابا شنودة الثالث فى مؤتمر القيادات الدينية سنة ١٩٧٧ .
(٢) فى « قرية ظالمة » .

وهنا نجد انه يلقى على الفرد كل المسئولية رافضا كل التعلات فيقول : « ولا تخدعن نفسك اذا أصابك ما تكره فتقول هذا من ظلم الحياة وقسوة الزمن وتحكم القدر وتخبط الحظ . عبارات فيها من الغموض ما يدعو الى الحيرة والقلق . ولو عدل النـاس عن المجهول الى المعلوم لاستقام تفكيرهم فى هـذا الأمـر » .

فكل مشاكل الانسـان ، مشاكله النفسية والاجتماعيـة والسياسية لا تستعصى على الفهم ، وردها الى المجهول هو خطأ كبير . وهروب من مواجهة النفس مواجهـة شجاعة تستوحى صدق الفطرة الانسانية . ولو ابتدأ كل انسان بمواجهة نفسـه على هذا الأساس ، فقد عرف طريق الهداية أو طريق التطهر .

والتطهر هو قانون النفس الانسانيـة ، ويحققه الايمـان والحب والخير . « لكن خير ما فى الايمان هو الايمان نفسه مهما يكن ما تؤمن به . وخير ما فى الحب الحب نفسه مهما يكن ما تحب ومن تحب ، وخير ما فى المعرفة المعرفة ذاتها مهما يكن موضوع المعرفة » . وهـذا الكلام يؤكد ان الوادى المقدس هو حـالة نفسية تتناغم فيها النفس مع الحياة وقوانين الكون . وهـذه الحالة النفسية تأتى كتعبير عن نزعة فطرية هى نزعة الايمـان وحب الجمال وحب الحكمة . هى ممارسـة لنوازع أو نزعـة

طبيعية فى أعماق الانسان ، وليست استجابة لدعوة دينية أو انسانية آتية من خارجه ، بل استجابة لعامل داخلى بحت .

ومن أجل هذا لم يشترط المؤلف طريقا بعينها لتحقيق التطهر أو الهداية . بل أشار الى عدد من السبل المختلفة لعل أمثلها سبيل الدين . لكنه ليس السبيل الوحيد . فمن الناس من لا يطمئن الى الايمان بالغيب ، وقد يحصل على الهداية عن طريق الحب والجمال . ومن الناس من « لا يتطهر الا بما يتفق والعقل فيكون طريقه الى الخير الحكمة وسداد الرأى والتفكير المستقيم . وهذا طريق أفاضل الوثنيين وبعض المفكرين المعاصرين » .

ومن العبث أن يحاول البعض فرض سبل محددة للهداية أو الخير ، لأن هذا الفرض يتعارض مع شرط تحقيق التطهر النفسى وهو يتم طواعية واختيارا . فالخير كما يقول المؤلف ليس شيئا محددا بل هو ما ترضى عنه نفسك رضاء تماما حين لا يؤثر فيها عامل خارجى من أى نوع . والشر ما تعمله ثم تلتمس العذر عنه . هذا عمل شرير مهما حاولت أن تستره بالمبادىء السامية أو تبرره بالدين نفسه . « فترتكب فى سبيله ما لا ترضاه نفسك » .

« ومن الخطأ أن تحدد للناس طريق التطهر ترغمهم عليه وان خالف طباعهم ، ومن الخطأ أن تحدد للناس صورا بعينها

للتطهر • فالناس يتطهرون كل على شاكلته بالايمان أو بالحب أو بالحكمة » •

ولاشك ان هذا المفهوم الجديد لنزعة التطهر الانسـانى يقطع السـبيل على جماعات التطرف والارهـابيين من كل لون الذين يتسترون بستار الدين أو المذهب الاجتماعى لقهر الآخرين واضطهادهم • والمؤلف هنا يهدم كل أساس لمزاعمهم فى هـذا السبيل • ولعل فى تقسيمه الجديد لأهل الأديان الثلاثة ما يؤكد هذه النتيجة •

اختلاف الأديان واسبابه :

يقرر المؤلف أن « الأديان تنبع من أصل فطرى واحد » وهذا ما تؤكده نظريته ولهذا يتساءل فى حذر دقيق « واذا كانت غايتها واحدة ووسيلتها واحدة ، واذا كان الحق فيها كلهـا قائما ففيم اختلافها وتطاحن أهلها وتقاتل المؤمنين بها » •

وهذه هى المشكلة التى يتصدى لها المؤلف بالدراسـة والبحث الآن : يقول الدكتور كامل حسين « الخلاف بين أهل الأديان اختـلاف فى التركيب السيكولوجى للناس » • وبنـاء على هذا ، فان مظاهر التدين تختلف باختلاف موقفنا من الله •

وموقفنا من الله تحدده عوامل ثلاثة هى الخوف أو الحب

أو الأمل • وقد تغلب احدى هذه العواطف على غيرها فى النفس الواحدة ، تبعا لمزاجها الخاص بها •

فـاذا كنت ممن يدفعهم الى الخـير أو يمنعهم عن الشر الخوف من الله وعقابه فأنت موسـوى مهما يكن الدين الذى تدين به •

واذا كنت ممن يدعوهم الى الخير حب الله ويدفعك الى تجنب الشر حب الناس الذين يحبهم الله فأنت مسيحى مهما يكن الدين الذى تدين به •

واذا كان الذى يدفعك الى الخير أملك فى الله والرغبـة فى الجزاء الأوفى والنعيم المقيم فأنت اسلامى مهما يكن الدين الذى تدين به •

ثم يقرر المؤلف أيضا ان « هـذا التقسيم أقرب الى فهم الواقع من تقسيم النـاس الى يهود ومسيحيين ومسلمين » • ثم يحاول أن يزيد الأمر وضوحا فيضيف :

« من المسيحيين من هم موسويين يؤكدون الخوف من الله ويتبعون أوامره ويتدسونها حرفيا • بل منهم من يرون ان عليهم أن يطهروا الناس بالقوة وأن يحملوا الناس على العقيدة الصحيحة ولو بالقتل والتعذيب (محاكم التفتيش) • هؤلاء موسويون

نفسا . ولعلنا لا نخطىء اذا قلنا انهم يوشعيون وهم يحسبون أنهم مسيحيون » .

« ومن المسلمين من هم موسويون بطبعهم كالخوارج الذين كانوا يؤمنون بالعدل مهما يكن فى تحقيقه من قسوة ، يطيعون أوامر الله كما يفهمونها ، ولو خالفت روح الدين مخالفة واضحة »

« ومن المسلمين من هم عيسويون (مسيحيون) فى طبيعة مزاجهم ، فالشيعة يشعرون أنهم فى حاجة الى شهيد يقدسونه ، يعتقدون انه مات فى سبيلهم فهم يحبونه حبا يدفعهم الى حب من يحبون الشهيد » .

ثم ينتهى المؤلف الى نتيجة هى ان هذا التقسيم يساعد على دراسة « تاريخ التطهر الانسانى على أنه وحدة متكاملة ظاهرها فيه خلاف كبير وباطنها متسق اتساقا عميقا » .

ومن المؤكد ان هذا التقسيم الجديد لفئات المؤمنين لن يرضى القوى المحافظة أو الموسويين من أهل الأديان أبدا . كذلك فان موقفه المتسامح مع الفكر الوثنى الباحث عن التطهر عن طريق الحب والجمال ، أو مع الالحاد الذى يرى فيه بذرة الايمان وان بدا عدوا للايمان وللايمان بالله ذاته . كل هذا لابد أن يثير ثائرة البعض وقد يذهب بهم الى حد القاء التهم وتحديد نصيب هذا المؤلف الشجاع من عذاب السعير .

ولعل المفهوم الجديد للنزعة الدينية هو الذى جعل الأستاذ فتحى رضوان يظن انه يدعو الى دين جديد • ولاشك ان دراسته لهذه النقطة بالذات تستحق ان نقف عندها بعض الوقت• فى (مجلة الثقافة عدد ٤٣) كتب يقول :

« ولعله قد وضح لك أن الحديث فى (الوادى المقدس) وان كانت له سمات الحديث عن الدين ، حتى يبدو لك دعوة الى دين جديد •• الا انه لا يقتصر على الدين ، وان لم يستبعده قط ، فهو يرى الدين وسيلة من وسائل الانسان للوصول الى الوادى المقدس ، بل انه يرى ان الدين ، هو الوسيلة المثلى لهذا الاهتداء ، لأنه يقول صراحة « وان كانت القوى التى تؤثر فى النفس كثيرة ، فان اهداها وأقواها وأكثرها شمولا وأقربها الى الطهر هو القدرة الالهية ، والايمان بغير الله لا يرضى النفس المستهدية حقا ، لأنه لا يعينها ولا يحميها من الضلال الا فى قليل من الأمور والى أمد قصير وعلى ضعف واضح • والرضى النفسى وحده هو الدليل ان الاهتداء بالله حق » •

ويمضى الأستاذ فتحى رضوان قائلا : « وقد تسأل نفسك، اذا كان هذا هو اعتقاد صاحب كتاب (الوادى المقدس) فلماذا لم يدر حديثه مباشرة عن الدين بعامة ، ثم عن الدين الاسلامى بخاصة » •

« والرد على ذلك تراه واضحا ، ولكنك لا تقرأه فى لفظ ،

ولا فى جملة ، اذ هو شائع فى فصول الكتاب كلها ، تراه من خلال الأفكار التى تنتشر فيه » .

« فهو أولا ، يرى ان الدين وسيلة الانسان المثلى للاهتداء ولكنه لا يصم ولا يدفع وسائل الناس الأخرى ، لهذا الاهتداء ، الذى يرمز اليه بالوادى المقدس ، حتى ولو كانت وثنية » . وثانيا ، يعبر عن تحفظات فريق كبير من النـــاس ، على بعض ما يدعو اليه الدين ، وما يحرج صـــدر المتدينين الذين لا يحبون ان يعطلوا عقولهم وهو يورد التحنثات ، فى صورة تساؤل منك أنت أيها القارىء لا منه هو الكاتب . وهو يوردها لا ليتركها معلقة ، بل ليفندها ويوهن منها ، لأن شكوكه ليست نهائية ، بل هى شكوك مقرونة برفض الشك أو بالشك فى الشك ، وبالعجز عن الوصول الى اليقين » .

« وهو ثالثا ، يفر وينجو من القلق المعذب ، والشك المقلق الى دين ، مجرد خال من الطقوس برىء من الجزئيات والعناصر التى لا يقبلها عقله ولا يسلم بها » .

« وأخيرا ، هو شديد التسامح ، مع الأفكار والمعتقدات التى لا يرضاها ولا يسلم بها ، وفى مقدمتها بطبيعة الحـــال الالحاد . فهو لا يرى الالحاد ، كما يراه ، أكثر المؤمنين المتدينين كفرا يستحق صاحبه اللعنة والطرد فى الدنيا ، والجحيم والسعير

فى الآخرة بل يراه أسلوبا من أساليب محاولات الانسان الى الاهتداء ، ففى الالحاد ـــ بذرة الايمان ـــ وان بدا عدوا للايمان بالله ذاته » .

ولاشك ان الذى يقوله الأستاذ فتحى رضوان صحيح بالنسبة للكتاب ، فهو بحكم قربه للمؤلف وصداقته له يعرف ان محمد كامل حسين يناقش مشاكله وشكوكه الخاصة بالدين ويجتزىء من كتابه الفقرة التالية :

« ولا يغرنك ما تظن فى نفسك من الحاد أو تفكير حر . فأغلب الظن انك لست ملحدا ، ولا كافرا ، وانك تؤمن بشىء ترتاح اليه نفسك ، وسيتبين لك أن نفسك لا ترتاح حقا الى ايمان شامل قوى الى حين تؤمن بالله . وان الخلاف بينك وبين المؤمنين اختلاف فى التعبير عن الايمان وهو اختلاف فى المظهر لا يدل على خلاف فى جوهر الايمان ، وانك فى حقيقة أمرك لا تكفر بالله وانما تكفر بما يقال لك عن الله » .

ويعلق الأستاذ فتحى رضوان على ذلك بقوله : « هذا الكلام يصاغ فى صيغة المخاطب ، والحقيقة انه كلام كامل حسين لنفسه ، فانه اذ يقول : انك فى حقيقة أمرك لا تكفر بالله ، وانما تكفر بما يقال لك عن الله . هو يعنى نفسه .

ثم يمضى تعليقه « وهذه واحدة من المسائل التى تحرج

تفكير كامل حسين ، فتجعله لا يقبل الدين التقليدى بقضه وقضيضه ، ويرى أن من حقه ، أن يرفض بعض هذا الدين ، ثم يحس بشيء من هذا الرفض ، فيلوذ بالوادى المقدس ، ليعبر عما يرتاح اليه من الدين . وما لا يرتاح اليه ، ولو استطاع ان يصرح بذلك لفعل ، ولدعا الناس الى الدين الخالص أو الدين كما يراه خالصا ، وان بقي مؤمنا بالله المسلمين ، وبجوهر دينهم ، وبرسول الاسلام ، وبسنته ، وهـذه محنة عبر عنها فى الوادى المقدس ولايمكن الانتفاع به ، الا فى هذا الضوء » .

وهذا الكلام الأخير للأستاذ فتحي رضوان ، لاشك يزيدنا معرفة بمعاناة المؤلف ، لكن حصره لكتاب « الوادى المقدس » فى حدود التعبير عن محنة هـذا العالم الجليل يحوله الى مجرد ترجمة ذاتية أو محاولة لتبرير المواقف والأفكار ليس الا . وهذا الفهم للأسف يهبط بقيمة هـذا الكتاب الخطير كما يقول هو نفسه ، ويدل على أن الأستاذ فتحي رضوان قد اختلط عليه الأمر ، ولم يتنبه الى القانون الطبيعى الذى يفسر به كامل حسين ظاهرة التدين كنزعة طبيعية فى الانسان تتوافق مع قوانين الكون .

كما اكتشف كامل حسين فى « وحدة المعرفة » ان قانون الكبح فى الكائنات الحية يعطى الأساس الطبيعى للضمير ويفسر وجوده ، فهو هنا يرى أن قانون الاستقطاب وهو أحد القوانين الكونية هو نفسه أساس الاهتداء أو التطهر فى النفس البشرية .

فان كان قانون الكبح البيولوجى هو قانون الضمير فان قانون الاستقطاب الطبيعى هو قانون التطهر والتطهر هو قانون النفس البشرية الذى يقودها الى السلم والى الوادى المقدس • وهذه هى القاعدة التى يقيم عليها نظرية « الوادى المقدس » ، وهدفها حل مشكلة التوفيق بين حياة الانسان وضميره وعقيدته • فما هو هذا القانون وكيف يعمل ؟

التطهـــر :

يقول المؤلف « ان التطهر قانون النفس البشرية الأكبر • لا تطمئن اذا أغفلته ، ولا تستقر ان حادت عنه • فهو أصل من أصول كيانها السليم •• بل هو قانون نفسى له أصوله وغاياته ووسائل تحقيقها • والتطهر مظهر من مظــاهر قانون كونى عام هو الاستقطاب •

قــانون الاستقطاب :

يقوم الاستقطاب على أمرين كما يقول المؤلف :

الأول : وجود قوة كونية قادرة فعالة « كافية » للتأثير فى الأشياء المهيــأة لقبول أثرها هــذه القوة تتجه بالمستقطب الى القطب • وهى خارجة عن الشىء المستقطب •

والأمر الثانى : هو وجود صفة فى هــذا الشىء المستقطب تجعله قابلا للتأثر بالقوة الموجهة الى القطب •

والاتجاه المباشر بين القطب والمستقطب هو محور الاستقطاب ، وقوانين الاستقطاب متشابهة وان اختلفت مظاهرها. ودراسة هذه القوانين فى غير الانسان تبين لنا القواعد الكبرى التى تتحكم فى التطهر الانسانى من حيث هو استقطاب نفسى .

والاستقطاب أوضح ما يكون فى الابرة الممغنطة . فهى تتجه الى القطب الأرضى اذا علقت من خيط أو وضعت على شيء يطفو فوق الماء .

وهى بذلك تدل على وجود القطب وتتأثر به . وفى هذه الحال يكون القطب ثابتا أبدا وقوته لا تتغير ، ولكن تأثر الابرة به يتغير قوة وضعفا وان ظل الاتجاه ثابتا ، على قدر ما فى الابرة من قوة استقطابيه وتزيد قوتها كثيرا ويقوى استقطابها اذا عولجت بما يقوى القوة الكامنة فيها .

ويعوقها عن الاستقطاب ألا تكون لها حرية التعبير عن هذه القوة . كذلك تتأثر الابرة بوجود قوة ممغنطة . عند ذلك تنحرف من محورها .

والاستقطاب فى الكائنات الحية أكثر تعقيدا وأصعب تحليلا ، تتم به فسيولوجيا النبات على أحسن وجه ، وتتم به بيولوجيا الحيوان على أحسن وجه . وليس ما يمنع أن يكون الاستقطاب صفة تتم بها سيكولوجيا الانسان .

ومظهر الاستقطاب فى النبات هو نموه رأسيا الى السماء مهما يكن سطح البقعة التى ينمو فيها • ووسيلته جهاز معقد يجعله قابلا للتأثر بالجاذبية ويمنعه أن يحيد عن الاتجاه الرأى • وفى هذا عامل كونى خارجى وصفة فى النبات تجعله قابلا للتأثر بهذا العامل ، واستقطاب النبات يدل على وجود الجاذبية •

ومظهر الاستقطاب فى حياة الحيوان هجرة الطيور فى وقت معلوم حيث تتجه فى هيئة معينة الى حيث الدفء لتتم دورة حياتها ، وبدفعها الى ذلك فطرة كامنة فى تكوينها ، يقابلها قوة كونية خارجة عنها قادرة على أن تؤثر فى جهاز فيها مهيأ لهذا التأثير •

وهكذا يتبين لنا أن هناك عاملين يعملان فى حياة الكائن الحى : قوة خارجة عنه تستطيع أن تؤثر فيه ، وصفة كامنة تجعله قابلا لهذا التأثر •

وأغلب حالات الاستقطاب التى نعرفها يقينا يكون فيها القطب أمرا كونيا عاما لا يتغير • وهو دائما خارج عن الشىء المستقطب ، وكذلك محور الاستقطاب يظل ثابتا • وانما التغير يكون فى صفات الشىء المستقطب ، وفيما يحيط به من قوى يشتد بها استقطابه أو يضعف ؛ ويستقيم بها اتجاهه أو ينحرف عن محوره الطبيعى •

قوة الهداية وقابلية الانسان للاهتداء :

ثم ينتقل المؤلف الى الانسان فيقول : « كذلك لا تتم حياة الانسان من حيث ان الانسانية هى ما يرتفع به الانسان عن الحيوان الا بعاملين » :

* قوة عليا خارجة عن الانسان تهديه الى ماتتم به انسانيته .

* وصفة فطرية فيه تهيئه لهذا التأثر .

هذه القوة الهادية التى تتأثر بها النفس الانسانية ، حين لا يعوقها عائق ، والقطب الذى تتجه اليه كل نفس ارتفعت عن مستوى الحيوانية البحتة ، وهو مصدر الخير ، وهو سر كل تطهر ، هو الله .

هذا هو القطب وبينه وبين النفس البشرية محور استقطاب هو الصراط المستقيم ، وهو ما يصل بين الله وبين النفس البشرية حين تتجه الى الخير المطلق . حين يتهيأ لها حرية التعبير عن فطرتها .

أما المستقطب فى حالة التطهر الانسانى فهو النفس البشرية، والناس يختلفون فى تقديرهم طبيعة هذه النفس . فمنهم من يرى الشر أصلا فى طبع الانسان ، وآخرون يرون ان الانسان حيوان ارتفع الى الانسانية حين عرف الحلال والحرام . وهذان

المذهبـان متناقضان فى الظاهر كما يقول المؤلف واختلافهما يرجع الى اختـلاف الغايات التى يرجوها أصحاب كل رأى • هؤلاء يبدءون من الله ويصلون الى الانسان ، وأولئك يبدءون من الانسان وليس ما يمنع ان يصلوا الى الله •

ويتضح الخلاف بينهما حين نبحث الأساليب التى يتبعها أصحاب كل رأى فى الدعوة الى الخير •

فالذين يرون أن العصيان أصل فى الطبيعة البشرية يدعون الى الخير عن طريق الطاعة • والذين يظنون ان الانسان طيب بطبعه الا أنه يحيد به عن الحق عامل من عوامل الشر يرون أن أهدى سبيل هى أن نقوى فى الناس دوافع الخير وموانع الشر •

التطهـر بالـدين :

وهذا يتحقق عن طريق التطهر • والتطهر ارتفاع النفس عن الطباع الحيوية البحتة • والدين هو أقوى سبيل لتطهير النفوس والتدين هو استقطاب النفس لقطب الخير المطلق وهو الله •

وأركانه ثلاثة : نفس مستهدية ، وقطب يستهدى ، وصفة فى النفس تهيئها للتأثر بقوة القطب ، هذه الصفة هى الايمان •

والدين هو جماع هذه الأمور الثلاثة فهو ظاهرة كونيـة نفسـية •

والبحث فى التطهر بالدين يشمل مباحث ثلاثة :

١ ـ مبحث فى طبيعة النفس الانسانية ٠

٢ ـ مبحث فى القدرة الالهية ٠

٣ ـ ومبحث فى الايمـان من حيث هو الصـلة بين الله والانسـان ٠

وهذا ما سأحاول ايجازه فيما يلى :

ويبدأ المؤلف فيقرر ان الطبيعة البشرية فىأول أمرها تكون غفلا غير ذات لون خاص ٠ ثم تدب فيها روح الاستهداء وبذلك تصبح نفسا ٠ حتى اذا اهتدت فعلا كان لنا أن نسميها ضميرا ٠

واهتداء النفوس فطرى خلقى ، أما ضلالها فمكتسب يأتيها من عوامل خارجة عنها طارئة عليها ٠ وليس من طبيعتها ان تتجه نحو الشر كما ان الابرة المغنطة لايمكن ان تتجه الى غير القطب الأرضى ما لم تعمل فيها قوى خارجة عنها ٠

والعيب الخلقى فى النفوس لايكون الا ضعفا فى قدرتهـا على الاهتـداء ومظهر ذلك النفس الهامدة ٠ ويظن أصحـاب النفوس الهامدة أنهم فى غنى عن ان يتعهدوا نفوسهم بما يقوى استهداءها أو يروضها على خير ٠ يحسبون أنهم يستطيعون أن يهتدوا بالعقل وحده ٠

وهذا خطأ لأن الطبع هو الذى يحدد أسلوب الناس فى الحياة وأغراضهم منها ، وليست الغايات هى التى تحدد طبـاع الناس ، ذلك أن التكوين السيكولوجى لكل انسان ثابت أبدا . والعقل لا يغير من هـذا التكوين شيئا ، ولا عمل له فى الواقع الا أن يعين على تنفيذ ما تتجه اليه النفس بما ركب فيهـا من طبـاع .

والتنزيه يجعل القدرة الالهية من أمور الغيب بعد أن كانت حاضرة محسوسة عند البدائيين .

والناس يختلفون فى موقفهم من أمور الغيب .

* المؤمنون الذين وضعوا لله صفات الكمال كلها كمـا يرونها فى الانسان ، يطمئنون الى هذا الكمال المطلق . وبه تتطهر نفوسهم .
* والمتشـككون الذين يؤمنون بوجـود الله ولكنهم لا يؤمنون بالصفات التي يصفه بها المؤمنون ، ويرون انها صفات انسانية بحتة ، يشكون فى ما انتهى إليه بعض المؤمنين من ان الله خلق الانسان على هيئته .
* والملحـدون الذين لا ترضى نفوسهم الا بما يفهمون كنهه . لكن البراهين العقلية لم تقنعهم بوجود الله .

ويؤكد المؤلف أهمية الايمان قائلا :

« الايمان قوة كامنة فى النفس السوية ترجع الى طبيعة تكوينها ، وهو أصل الصلة بين الله والانسان ، بين القطب والنفس المستقطبة . والايمان هو أن توقن أن أمور الغيب تجرى على نحو يمكن الاطمئنان اليه وان تثق ان ما لا تعرف يسير على نظام يشبه ما نعرف » .

وليس المؤمن فى حاجة الى من يحدثه عن ضرورة الايمان . أما المتشككون والملحدون فقد يجدون فى كلام المؤلف على حد قوله ، حافزا عليه . فالايمان لازم لصحة الانسان النفسية . وعدم الايمان بشيء هو مصدر أكثر الامراض النفسية ، وضعف الايمان أكبر أسباب القلق النفسى .

ورغم حديثه عن الله واثباته لوجوده فى « وحدة المعرفة » كحقيقة كونية تعلو على الانسان وتحدد تاريخ حياته . ورغم قوله بأن التشكك والالحاد يؤديان الى القلق النفسى الا أنه ينتهى بنا الى نتيجة غريبة هى أن وجود الاستقرار النفسى هو دليل الايمان ، وقاعدة القياس عنده . فالايمان بالله هو السبيل الأمثل لكنه ليس شرطا . فالمهم هو الايمان القوى بأى شيء ترتاح اليه النفس وتطمئن . وهذا ينطبق مع نظرية الوادى المقدس التى يقول عنها أنها أمور ثابتة فى النفس . فهى جنة أرضية قائمة فى داخل ذواتنا . لا تتعلق برضاء الله أو جزائه ، أو بتنفيذ وصايا أو أداء فروض معينة . فهذا الاستقرار النفسى

الى شيء ما يكفى عنـده لتحقيق التطهر . وهـذا معنـاه ان الخلاص يبدأ من الانسان وينتهى اليه . وهذا ما يؤكده هنا اذ يقول : (صفحة ٥٥) .

« اذا كنت غير مؤمن فستقول انـك لا تشـعر بهـذا الاضطراب ، وان حياتك مطمئنة مستقرة الى ما تعلم ، وانه ليس بك شيء من التشوه النفسى الذى نتحدث اليك عنه » .

اذا كانت هذه حالك فاعلم انك فى الواقع تؤمن بشيء ايمانا قويا الى حد يرضيك وقد تسمى ما تؤمن به عقلا أو علما ، وقد تظن انك تؤمن بالطبيعة . كل هذه تعابير مختلفة عن شيء معنوى غيبى على نحو ما ، تؤمن به فلا تضطرب نفسك . والعبرة ليست بما تؤمن به ، وهو ما يتعارض الى حد كبير مع المفـاهيم الدينية السائدة . فايمان اليهود يقوم على أسـاس انهم شعب الله المختار ، والمسيحيون يعتقدون ان الانسان بجهاده الخـالص لا يمكن أن يحقق لنفسه الخـلاص ، ولابد لذلك من معونة الروح القدس . والمسلمون يعتقدون ان الدين عند الله الاسلام . وهكذا يبدو واضحا أن لكل ديانة من الديانات السماوية الثلاثة شرطا مانعا جامعا لابد من توافره لسلامة الاعتقاد بها . بالاضافة الى الايمان بالله واليوم الآخر وكتبه ورسـله وهو ما يشتركون فيه مسلمون ومسيحيون ويهود .

وقد تجنب المؤلف أن يشير بأى شيء الى تعارضه مع هذه الديانات حتى ينأى بنفسه عن اثارة المشاكل • وهذا هو الحرج الذى عاناه المؤلف وأوضحه الأستاذ فتحى رضوان بقوله : ان المؤلف « يفر وينجو من القلق المعذب والشك القلق الى دين ، مجرد خال من الطقوس ، برىء من الجزئيات والعناصر التى لا يقبلها عقله ، ولا يسلم له بها » • وربما كان ذلك أيضـا هو السبب الذى جعل الأستاذ فتحى رضوان يقرر أن « كتاب الوادى المقدس » يعتبر « من أكثر أعمال الأدباء والمفكرين فى العالم العربى خطرا ! » •

وظنى أن نظرية المؤلف التى طرحها فى « وحدة المعرفة » وفى « الوادى المقدس » تمثل قنبلة زمنية لم يحن وقت تفجرها لأن هذه الكتب لم يتنبه لها أحد أو لأنها مرت غير مفهومة كما يقول فتحى رضوان •

ومشكلة البحث عن دين جديد أو عقيدة جديدة تستوعب معاناة الناس فى عالمنا المعاصر وتفسر تطور نظرة الانسان المعاصر الى الله والى الكون تفسيرا يريحه ويزيد من ارتباطه بالآخرين مسألة مطروقة فى أوربا وأمريكا ناقشها الوجوديون والطبيعيون بحرية كاملة دون حرج • ومن أشـهر الذين تعرضوا لهـذه المسائل برتراند رسل وسارتر وبريخت وهم يمثلون أيديولوجيات مختلفة • لكن الأخير جسدها بطريقة ذكية فى مسرحية « المرأة

الطيبة من ستزوان » حيث ناقش الافكار الدينية التقليدية فى ضوء المشاكل العصرية ، فاتضح عجز الدين عن مواجهة تعقيدات الحياة العصرية وانتهت المسرحية بنداء وجهه الى الجمهور يطلب اليه أن يفكر فيما نحتاج اليه الآن « هل نحتاج الى انسان جديد ، أو عالم جديد أو الى آلهة جديدة أو أننا لا نحتاج الى شيء على الاطلاق » ٠

وفسر أحد كبار النقاد الالمان هذه المسرحية على أساس انها تعبير عن المشاكل الدينية فى أوربا المعاصرة حيث توجد اجابات للأسئلة فى عقيدة جديدة أو فى الالحاد ٠

ولا أعتقد أننا بعيدون عن هذه المشاكل المقلقة ، بل أن مشاكلنا أخطر لأنها تتمثل فى ظهور التيارات الدينية المتطرفة التى تحاول فرض مفهومها الخاص للدين على جميع الناس وهى محنة حياتنا المعاصرة فى مصر وفى العالم العربى ٠

لذلك كان من الطبيعى أن يخرج من بيننا من يهتم بهذه الأمور الخطيرة ٠ وتقدم عالم مفكر فى مكانة كامل حسين لمناقشة هذه القضية بأسلوب علمى بعيدا عن التزييف والتبرير والتلفيق، أمر يدعو الى الرضاء والتقدير ، ويدل على أصالة هذا المفكر وصدق موقفه ازاء مشاكل الانسان فى وطنه خاصة وفى العالم عموما ٠

أما ما يحسه من بعض الحرج فهو لا يقلل من هذه الأصالة كما لا يقلل أيضا من شجاعته الشخصية فى طرح ما يؤمن به ، بل ان هذا الحرج يزكى من أصالته وشجاعته معا لأن حرجه وشكه نابعان من موقف صدق ، هو أن منهجه القائم على تدرج القوانين الكونية لايزال به فجوات قليلة لم يملأها العلم بعد ، ولم تصل به الى اليقين الثابت حتى الآن • وهذا ما يجعله يطرح أفكاره فى هدوء وفى روية وتساؤل وتجرد حتى لا يدفع بالشك الى قلب أحد أو عقله فى أمر يعتقد به أو يقدسه •

ويحمد له أيضا ان مذهبه الانسانى أو الطبيعى هذا ، ان جاز لى أن أسميه كذلك يحبذ الايمان بالله ويحض عليه • و « الايمان بغير الله لا يرضى النفس المستهدية حقا لأنه لا يعينها على الهدى ولا يحميها من الضلال الا فى قليل من الأمور والى أمد قصير » لكنه لا يسد السبل الأخرى للاهتداء • فالايمان أيا كان ما تؤمن به وسيلة للتطهر وضرورة لازمة لصحة النفس لأنه كما يقول المؤلف مادة حرمانية •

الايمان مادة حرمانية :

أى أنه « شىء اذا حرمته تماما أصابك مرض نفسى خطير من أثر هذا الحرمان ، ولكن قدرا منه وان قل قد يكفى فى صلاح النفس واستقامة أمورها ، وكثير من الملحدين بهم هذا

القدر من الايمان بشيء غيبي وبذلك لا تصيبهم أمراض القلق » .

ونصل الى مجمل نظرية الوادى المقدس حين يقول « ونظرية الوادى المقدس تدعو الى السلم النفسى عن طريق تقديسك أمر عاليا ، وهي وحدها التى يمكن أن يجمع عليها المتطهرون دينا ، على اختلاف عقائدهم ، بل قد يجمع عليها المتدينون وغير المتدينين » . (صفحة ٦١) .

وهو يتصدى بهذا المفهوم الرحب للايمان وللتعصب والتطرف واستغلال الدين فيما لا يليق به .

يقول المؤلف (صفحة ٦٣) « وأكثر المتدينين يظنون ان الاخلاص لدينهم يحتم عليهم أن ينكروا كل ما يؤمن به غيرهم ، ويظنون أن التعصب يدل على قوة ايمانهم ، ويحسبون أن حملهم الناس على الايمان بدينهم قسرا يقربهم الى الله . وهم يخلطون بين جوهر الايمان ومظاهره » . ثم يمضى قائلا « وأكثر الشر عند المتدينين يكون حين تتكون منهم جماعة لها سلطان دنيوى وقوة فاعلة ، ولكن هذا عيب الاجتماع وليس عيبا فى الدين الذى يجمعون عليه . ولا ينكر أحد أثر المسيحية فى تاريخ أوربا، ولكن الخطأ أن ينسب ما فى هذا التاريخ من ظلم وضلال الى المسيحية نفسها » .

وهنا يتضح لنا الأسباب التى تجعله يدعو الى الفصل التام

بين الدين والدولة أو بين الدين والنظم الاجتماعية ، أشار الى ذلك فى « التحليل البيولوجى للتاريخ » وفى قصه « قرية ظالمة » حيث أعطى هذا الموضوع حقه من الدراسة • فهو يدين الذين « يدافعون عن النظم الاجتماعية التى يعتقدون خيرها على انها من الدين ، ولكن النظم تتغير دائما ولا يصح عقلا أن تربط بالدين وهو ثابت أبدا » (قريه ظالمة صفحة ٢٢١) •

وهو هنا يرى ان « أكثر الشر عند المتدينين يكون حين تتكون منهم جماعة لها سلطان دنيوى وقوة فاعلة » لأن ذلك سيدفعهم الى فرض مفهومهم للدين على غيرهم من الناس • وهذا اكراه « ولا اكراه فى الدين ، قد تبين الرشــد من الغى » كما تقول الآية الكريمة • وكامل حسين يرى أن الاكراه على الايمان بدين أو بعقيدة يؤدى الى عكس المطلوب من الوادى المقدس ويؤدى الى التعاسة الانسانية • يقول (صفحة ٨٨) :

« وقد تهتدى النفوس وهى ضعيفة ومقدساتها باطلة كما هى الحال عند البدائيين • وقد تضل نفوس قوية ومقدساتها حق كما حدث فى محاكم التفتيش • وليس للهدى والضــلال معيار الا المعيار النفسى البحت » •

وهذه الهداية لا تتم على خير وجه الا فى منــاخ الحريــة الكامل حيث تتأكد حرية العقل وحرية الضمير • وهــذا يتيح

للفرد أن يعطى ولاءه للجماعة فى حدود لا تتعارض مع ضميره ولا تدفعه لعبادة الأوثان المعاصرة التى يراها المؤلف ممثلة فى الكرامة القومية ، والوطنية ، والولاء ، والطاعة لأولى الأمر ، وهى أشياء لا ضرر فيها فى حد ذاتها الا حين تتعارض مع الضمير أى بأمر الله فى الانسان » • وكذلك العقائد الدينية والسياسية والاجتماعية كلها يمكن أن تتحول الى أوثان تطغى على ضمير الفرد وتطفىء نوره ، وتؤدى فى ذات الوقت الى تعاسة المجموع •

ولهذا يرى المؤلف ضرورة الحفاظ على حرية الفرد وهذا لا يتحقق فى ظل النظم الشمولية والنظم الدينية لأنها شمولية تماما ، وقيام هذه النظم يؤدى الى نوع آخر من الامراض الحرمانية هو غياب حرية الفكر • وهو يرى ان هذا المرض الخطير هو الذى قضى على الدولة العثمانية ، وسوف يقضى على كل دولة تسير سيرتها •

ونخلص من هذا التحليل بأن المؤلف يرى ضرورة توفر الحرية الفردية وحرية الفكر والاعتقاد حتى يتوفر للأفراد جو التعبير الصحيح عن الايمان ، وهو يؤدى الى صحة نفوسهم ويقوى من دور الفرد فى كبح جموح الجماعة وقدرتها على ارتكاب الشر • وتجسيد ذلك هو الديمقراطية السياسية والعدالة الاجتماعية •

أزمة الضمير الانسانى

وقصة « قرية ظالمـة » تمثل محاولة جادة لدراسة أزمة الضمير المعاصر واكتشاف أسبابها وهذه الأزمة تتبدى فى قدرة المجتمعات على ارتكاب جرائم القتل والعـدوان ضـد الأفراد والجماعات الأخرى باسم الوطنيـة أو القومية أو باسـم الدين والصالح العام اذ تتحول هـذه الشـعارات الى أوثان يعبدها الناس ويقدمون فى محرابها الذبائح البشرية ٠ وقد لا يكون فيها ضرر حتى تصطدم بالضمير أى بأمر الله عند ذلك يكون الخضوع لها وعبادتها من دون الضمير كفرا أو شركا وضلالا ٠

ومن هنـا ينبع تمرد بعض الأفـراد على مجتمعاتهم حين يصطدم الايمان الفردى بالشعارات العامة التى يرفعها المجتمع وكثيرا ما يكون التمرد مأساويا فيدفع هؤلاء الأفراد حيـاتهم ثمنـا له ٠

وفى سبيل الكشف عن جذور هذه الأزمة وتوضيح أبعادها الحقيقية يعود بنا المؤلف قرابة ألفين عام الى الوراء ٠٠٠ ليحلل لنا أحداث ذلك اليوم المشهود حين أجمع بنو اسرائيل أمرهم أن يطلبوا الى الرومـان صلب المسيح ليقضـوا على دعوته ، وما كانت دعوته الا أن يحتـكم النـاس الى ضميرهم فى كل ما يفعلون وما يفكرون فلما عزموا أن يصلبوه لم يكن عزمهم الا أن يقتلوا الضمير الانسانى ويطفئوا نوره ، وهم يحسبون أن عقلهم ودينهم يأمران بما يعلو أوامر الضمير ٠ وفى هذا الذى

أرادوه تتمثل نكبة الانسانية الكبرى » (قرية ظالمة ص ٢) .

لقد كان اليهود أهل دين وكان الرومان أهل مدنية وقانون ولم يحل ذلك كله دون ارتكابهم للجريمة لأنهم تصوروا ان الدين والنظام يعلوان على أوامر الضمير ومن هنا كانت خطيئتهم ومأساتهم ومأساة الانسانية عموما حتى الآن . وكما يقول المؤلف « فالناس أبدا معاصرون لذلك اليوم المشهود وهم أبدا معرضون لما وقع فيه أهل أورشليم حينذاك من اثم وضلال وسيظلون كذلك حتى يجمعوا أمرهم أن لا يتخطوا حدود الضمير » .

ومن هنا يتبين لنا أن المؤلف قد اختار واقعة صلب المسيح ليستكشف من خلالها أزمة الضمير الانسانى المعاصر ثم يقدم لنا رؤيته للخلاص . فنحن فى مدينة أورشليم وفى تلك الساعات الحاسمة من يوم الجمعة الحزينة حيث يشيع جو القلق والاضطراب والكآبة والترقب .

ولا تكاد تمضى فى قراءة القصة حتى نلتقى بعديد من الشخصيات التى شاركت فى تلك الأحداث أو التى شهدتها .. والجميع فى أزمة تأخذ بخناقهم فرجل الاتهام الذى جمع بالأمس كل قدراته البلاغية ليقنع شيوخ اسرائيل وكهنتها أن المسيح خطر يهدد المجتمع ولابد من القضاء عليه .. هذا الرجل أصبح اليوم يساوره الشك فى صدق ما قال .

وفى طريقه الى دار الندوة يلتقى بذلك التاجر اليهودى الذى يحاول بالمال وبالذكاء أن يقنع الحداد بصنع المسامير التى تدق فى يدى المسيح ورجليه . ان الحداد يخشى الاشتراك فى هذه الجريمة ولكن التاجر يقول « ان أكبر الجرائم اذا وزعت على عدد من الناس أصبح من المستحيل أن يعاقب الله أحدا من مرتكبيها » ، ولا يكاد رجل الاتهام يسمع قول هذا الشيطان حتى يرتعد أيكون هو أيضا ممن يشاركون فى الخطيئة الكبرى مجزأة حتى لا يدرى أحد ولو كان اله بنى اسرائيل نفسه على من يكون العقاب ، « ويرهقه التفكير فيعرج الى دار صديق له يسأله : انحن على صواب فى اتهام هذا الرجل وصلبه أم على خطأ ؟ » . ويرد صديقه : « احتكم الى ضميرك وحده فهو الذى يهديك » .

ان عقله هو الذى أوحى له بأن المسيح خطر عليهم ، ودفعته أنانيته لكى ينتهز الفرصة ليظهر بمظهر الرجل الحريص على المجتمع وسلامته حتى يحقق بغيته فى الارتقاء فى منصبه أما ضميره فلا يرى على المسيح مأخذا .

وما جرى لمثل الاتهام يحدث مثله للمفتى ، فلا يكاد يجتمع بهم فى دار الندوة حتى يتراجع عن فتواه « انى لن أفتى بعد اليوم انهم اساءوا فهم فتواى ، ويريدون أن يقتلوا بها رجلا لا أرى ضميرى يرضى عن قتله » .

ويحاول أحدهم أن يحذره . لقد آمن الناس بأن صلبه واجب ، ولن يعدلوا عن رأيهم وليس من السياسة أو مصلحة المجتمع أن يتراجع أحد عن هذا الموقف . ويرد المفتى بأنه لا يهتم بأمر العامة أو بأمور السياسة قائلا « اذا كان من رجال الدين من يرى رأى أهل السياسة فذلك انهم يضعون السياسة فوق الدين أو يضعون سياسة الدين فوق الدين نفسه ، وهذا هو الضلال المبين » .

أما حيرة قيافا فتنبع من عدم ايمانه بالقوة واعجابه بالحلول الأخلاقية التى يقدمها المسيح وفى ذات الوقت حرصه على سلامة المجتمع وحمايته من الانقسام وهذا يتطلب صلبه . وبات ليلته مهموما وسار فى الصباح الى دار الندوة محزونا لا يدرى ماذا يفعل كيف يبرىء المسيح من الباطل الذى اتهموه به ارضاء لضميره أو كيف يوافق على صلبه حماية للمجتمع الذى يجلس هو على قمته كرئيس لشيوخ وكهنة اسرائيل . لقد فقد ثقته بنفسه وبالشورى التى كان يؤمن بها ويرى الآن أنها قد أصبحت وسيلة (لخنق) الضمير عند الجماعة .

كذلك يتراجع معظم الشيوخ عن قرار صلب المسيح الا رجال المال والتجارة الذين يصرون على صلبه ويرون فى دعوته للاخاء والمساواة وسيلة لتجميع العبيد والفقراء استعدادا لثورة ضد المجتمع وحين يعجز منطقهم يهددون الشيوخ والكهنة

بالجماهير قائلين « ان الشعب هائج ولن تهدأ ثائرته حتى يصلب هذا الرجل » ، ويتسللون الى خارج دار الندوة ليجمعوا الرعاع ويحرضونهم ضد رؤساء الشعب وضد المسيح •

وأحداث القصة لا تستغرق أكثر من ثلاث ساعات وهو زمن المـأساة اليونانيـة • ومن حديث الأشخاص يتكشف لنا ما تم بالأمس ••• ونتائجه التى تظهر اليوم • هكذا يتضح لنا جو المـأساة وظروفها • فالجميع فى أزمة حادة وسبب الأزمة ان خطأ فادحا قد وقع بالأمس حين أصدروا قرارا اجماعيا بصلب المسيح ، واليوم قد وجدوا أنفسهم فى قبضة هـذا القرار الذى لا يستطيعون عنه رجوعا أمام حشود الرعـاع والغوغاء التى اقنعوها بالأمس بخطر النبى الجديد •

لقد عادوا الى بيوتهم بعد اصـدار القرار •• ولم يكد كل فرد منهم ينفرد بنفسه حتى بدأ يشعر بصحوة ضميره ، وبدأ يرى الأمر على نحو جديد وكيف يتراجع أو كيف يبرره لنفسه أو للآخرين ؟ لقد وضعهم بيلاطس البنطى فى مأزق حقيقى •

لقد سلموه المسيح بالأمس ليصلبه ولكنه اليوم يرى أن يطلق سراحه حسب عادته فى عيد الفصح • وهو يقول انه لا يجد علة لقتله • وأمام هـذا الأمر عليهم أن يتشاوروا من جديد ، ويقرروا هل يطلق لهم المسيح أو باراباس •

لقد قدم لهم بيلاطس فرصة عظيمة للرجوع عن خطأ ، وكان على رؤساء الكهنة وقادة الشعب أن يغتنموا هذه الفرصة حتى يتخلصوا من تبكيت الضمير الذى يعتصرهم فردا فردا .. وهنا تلاحظ براعة المؤلف .. فالأحداث تتطور بالحتمية بما يكشف لنا مأساة العجز عند ذوى الرأى ورجال الدين .. فلا يكاد يستقر رأيهم على التراجع عن قرار الأمس حتى تحاصر الجماهير دار الندرة وتتدفق الى مجلسهم وتتهمهم بالخيانة وتطالب بصلبهم مع المسيح ، وأمام هذا القهر يذعن الجميع . لقد اقنعوهم بالأمس أن المسيح فتنة تهدد استقرار المجتمع وسلامه فكيف يقنعونهم اليوم بغير ذلك ؟ !

وهكذا تتكشف لنا مأساة الفرد ومأساة الجماعة فالحقيقة تثقل كاهل العقلاء فردا فردا . ولكن من يقوى على مواجهة الجماهير .. من ؟ يقال ان الجماهير لا عقل لها والمؤلف هنا يرى ان الجماهير لا ضمير لها أيضا . فلو تحدى أحدهم هذه الجماهير ووقف مع المسيح لكان جزاءه الحتمى هو القتل فمواجهة الفرد للجماعة يؤدى الى مأساته ومع ذلك فالمؤلف يشجع على هذه المواجهة ويحرض الفرد على التمرد انصياعا لأوامر الضمير طالما كانت مصلحة المجتمع تتصادم مع ضميره. مهما كانت الشعارات المرفوعة عن مصلحة الوطن وحماية الدين والصالح العام .

وهو موقف يتضمن دعوة للاستشهاد فى سبيل المبادىء .
فخوف الانسان على حياته ومصلحته يدفعه الى الخضوع أحيانا للمجموع مخالفا ضميره الذى يعتبره المؤلف قبسا من نور الله وبهذا يكون خسرانه . وماذا ينفع الانسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه ، كما يقول السيد المسيح .

لاشك أن المؤلف قد اختار أسلوبا ملائما لموضوعه فسرد الأحداث عن طريق الأشخاص من زوايا مختلفة يعد أكثر تأثيرا وأقدر على ابراز وجهات النظر المختلفة فنحن لا نرى واقعة الصلب رغم انها الحدث الرئيسى للقصة . وانما نسمع عنها فى حديث الفيلسوف اليونانى الملحد مع الحكيم الماجى الذى رأى نجم المسيح يوم مولده وآمن به منذ ذلك الحين وهو هنا كثيرا ما يبرز وجهة نظر المؤلف (ص ٢٣٤ ـ ٢٣٥) .

يقول الفيلسوف المادى الذى يرفض التسليم الا بما يقبله العقل : « انى مازلت أبعدما أكون عن فهم حقيقة ما حدث أمامنا اليوم » .

ويفسر الحكيم الماجى أحداث اليوم قائلا « انى أعلم من أحداث هذا اليوم ما لا تعلمون . ان الله رافع السيد المسيح اليه فهو نور الله فى الأرض فلما أبى أهل أورشليم الا أن يطفئوه أظلمت عليهم الدنيا وهذا الظلام آية من عند الله تدل على أنه حرمهم من نور الايمان وهدى الضمير » .

وهكذا تنتهى وقائع الصلب الى هذه النتيجة المحيرة . ذلك لأن « رافع » جال يحتمل التنبؤ بما سوف يحدث ، ويكون حديث الماجى والفيلسوف اما قبيل الصلب أو بعده أو فى ابانه ... وفى هذه الحالة يحقق كامل حسين المواءمة بين آية « ما قتلوه وما صلبوه » وبين « واقعة صلب » لا ينبس عنها بكلمة ، ويكون « رفع » السيد المسيح قد حدث ، بعد الدفن وقيامه من القبر ... وهذا أقرب الى معنى الآية الكريمة « يا عيسى انى متوفيك ورافعك الى » ثم يشير المؤلف بعد ذلك الى عودة المسيح شخصيا بعد ثلاثة أيام ليأمر تلاميذه أو حوارييه بنشر الانجيل فى ربوع العالم .

ان واقعة الصلب تمثل حادثا شديد التعقيد يحفل بالمعانى الدينية والاخلاقية والفلسفية .

ولعل صعوبة فهم هذه الجوانب حال دون عرض مشهد الصلب أمامنا فى القصة مع انه المحور الرئيسى واكتفى المؤلف بتقديمه عن طريق رواة هم شهود عيان لما وقع فى تلك الساعات العصيبة ولاشك انه أسلوب موفق أتاح لنا رؤية هذه الحقيقة من عدة جوانب مختلفة .

فقد اختار المؤلف حيلة ذكية ترمز اليه هى واقعة اعدام الجندى الرومانى وكان هذا الجندى قد التقى بمريم المجدلية بعد توبتها على يد المسيح فعرف عن طريقها معنى الحب المسيحى

فرفض ان يشترك مع زملائه فى محاصرة احدى القرى ومهاجمتها بل نبه أهل القرية للغزو المتوقع ، فحاكمه الرومان بتهمة الخيانة ونفذوا الحكم فيه بأن ربطوه فى أربعة خيول تعدو فى اتجاهات مختلفة حتى تمزق جسده •

وهذه القصة الفرعية التى ابتكرها خيال المؤلف تخدم هدفين بالنسبة للحادث الرئيسى فهى تجسيد لمعنى الفداء على مستوى الانسان الذى ضحى بنفسه كما أنها تأكيد لمسئولية الرومان • فان كانت واقعة صلب المسيح تجسد جريمة اليهود وهم أهل دين فجريمة تمزيق هذا الجندى تجسد وحشية الرومان وهم أهل مدنية وقانون ، وهنا يتضح لنا عجز الدين والقانون عن انقاذ الانسان من ثورته المأساوية ضد حقيقة الضمير ما لم يكن الدين والقانون مرتبطين بالحقيقة ارتباط العبد بالسيد كما يقول كينيث كراج (١) • كذلك نجد أن المؤلف يصور التلاميذ فى أزمة تبكيت ضمير لأنهم عجزوا عن انقاذ معلمهم وهذا أمر غير مفهوم فالتلاميذ كانوا ينفذون تعاليمه التى ترفض العنف ليتقدم هو نحو الصليب ليكمل جهاده ورسالته من أجل الخلاص •

وفى مقدمة الترجمة الانجليزية لهذه القصة يعلق مستر

---

(١) مستر كينيث كراج قام بترجمة قصة « قرية ظالمة » الى اللغة الانجليزية وكتب لها مقدمة وافية •

كينيث كراج على أزمة أورشليم فيشير الى أن صيحة الجماهير لبيلاطس التى وردت فى الانجيل « خذ هـذا الرجل » تحولت من الفرد الى المجموع فأصبحت تعنى « خذ هؤلاء الرجال » .
« أصبح الرجل أزمة المجموع وأصبح المغزى الاخلاقى للمشهد حكما بواسطة الانسانية وللانسانية » .

وسحر هـذا الكتاب انه يتخذ هذا الموضوع محورا له يستكشفه بحساسية مرهفة ويقدمه وربما لأول مرة عن طريق مفكر ينتمى للعقيدة الاسلامية .

فالفكر الاسلامى يميل الى رفض فكرة صلب المسيح والمسيحيون يحاولون منذ قرون اثبات الصلب عن طريق الأسانيد التاريخية وكتدعيم للعقيدة الدينية التى تؤمن بالصلب كطريق للفداء وكان من نتيجة هـذا الجدل ان غمض على الجميع تقريبا المغزى الانسانى لهذا الحـادث . وهذا ما يبرزه الدكتور محمد كامل حسين من خلال هذه القصة فهو يقدم تحليلا نافذا لارادة اليهود على صلب المسيح .

وهو يفعل هـذا دون أن يتعدى الحدود التى رسمها القرآن ... ولكنه يستكشف الأحداث من جديد فى ضوء النص القرآنى ويكتشف ان واقعة الصلب قد حدثت على المستوى الانسانى أما من هو الذى صلب ؟ فهو لا يصرح ان كان هو المسيح أو شبيه له .

ولعله يجدر بنا ونحن نعرض لهذه القصة الهامة أن نستعرض معا الآراء التى ترفض موضـوع الصلب ونحلل أبعادها لنعرف الى أى حد وصل المؤلف فى مناقشة هـذه القضية ولعل أهم هذه الاقوال هو ما جاء بالقرآن الكريم فى الآية « وقولهم انـا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وان الذين اختلفوا فيه لفى شـك منه ما لهم به علم الا اتبـاع الظن وما قتلوه يقينا بل رفعه الله اليه وكان الله عزيزا حكيما » .

وهذه الآية الكريمة تتفق فى معناها مع ما قال به بعض الفلاسفة فى القرن الثانى الميلادى اذ قالوا ان المسيح لم يصلب وان الذى صـلب هو شخص غيره خيـل لليهود انـه المسيح وأما المسيح نفسه فقد رفعه الله الى السماء سالمـا وقد أطلق المؤرخون على هذه الجماعة اسم « المشبهة » .

وفى القرن الرابع الميلادى قدم الراهب أريوس رأيا مختلفا يعد نوعا من الاجتهاد الفلسفى فى تفسير آيات الانجيل فيقول أريوس ان الله لم يتعـذب فى المسيح وان المسيح الذى صـلب وتعذب كان بشرا من لحم ودم والجسد مجرد ظل ، مجرد مظهر ، أما جوهر المسيح فهو روح الله وكلمتـه والجوهر لا يصـلب ولا يتعذب انهم ما صلبوه الا فى الظاهر فقط أما المسيح الكلمة فقد رفع الى السـماء والمسيح البشر قد صلب على الأرض .

ولكن العامة تتوهم أن روح الله تعذبت فى جسد المسيح وان المسيح صعد الى السماء روحا وجسدا •

وقد رفضت الكنيسة الأرثوذكسية كلام أريوس واعتبرته بدعة مذمومة لأنه يفصل بين اللاهوت والناسوت أى بين الطبيعة الالهية والطبيعة الجسدية للمسيح بينما تقول تعاليم هذه الكنيسة المستمدة من الانجيل أن المسيح قد صلب وقبر وفى اليوم الثالث قام من الأموات وصعد الى السماء وأن لاهوته لم يفارق ناسوته لحظة واحدة أو طرفة عين •

وهذه الأقوال على ما بينها من خلاف تتفق جميعا فى حدوث واقعة الصلب فاليهود يعترفون بها فى الآية الكريمة « وقولهم انا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله » فهم يعترفون هنا انهم قتلوه وهم يعلمون انه رسول الله • فان كان الله قد رفعه ووضع على الصليب شخصا يشبهه لحكمة الهية فان الجريمة تبقى تبعتها على اليهود والرومان لأن تدبيرهم للصلب وتنفيذه على هذا النحو يعطى الدليل الكافى على انهم رفضوا المسيح وتعاليمه الداعية الى الحب والسلام •

وفى حدود هذا التفسير القرآنى تصرف المؤلف فهو يقدم الوقائع السابقة على الصلب كما هى بالضبط فى المفهوم المسيحى • فاذا تركنا جانبا السؤال عما اذا كان الصلب قد وقع للمسيح فعلا ، وركزنا على الحدث كشىء كان مقصودا به

المسيح فان المغزى الانسانى كله للقرار الذى اتخذه معاصروه ضده ومن أجل صلبه يبقى كما هو لا تشوبه شائبة وهذا ما يذهب اليه مستر كينيث كراج ثم يضيف « ان الشىء المهم هو ان قلة قليلة قبل (كامل حسين) هى التى قامت بمبادرات اسلامية لدراسة التاريخ المسيحى من جانبه الانسانى » .

وعلى الجانب الانسانى يرى الدكتور كامل حسين ان وقائع الصلب تمت . فاليهود وبيلاطس البنطى كانوا يعلمون انهم يصلبون المسيح لا شبيها له ولو عرفوا بالشبيه لتراجعوا عن فعلتهم فحقيقه الصلب بوقائعها على هدا النحو (تشكل مواجهة أخلاقية تنعكس عليها مشاكل الموقف الانسانى بحيث تتيح لنا دراسة الأزمة الانسانية الشاملة) .

فمدينة أورشليم التى يطلق عليها المؤلف اسم « قرية ظالمة » هى نموذج للعالم كله وقيافا وبيلاطس ليسا ممثلين لليهود والرومان فقط بل ممثلين للانسانية كلها حين تخاذلا أمام الرعاع وسلما المسيح للصلب .

ورغم أن القصة تكشف لنا أيضا عن أسلوب اليهود فى توزيع تبعة الجرائم الكبرى الا انها لا تدين اليهود كشعب أو جنس فهى لا تدين مجتمع بذاته كمجتمع بل بفعله وهى ادانة لكل من ينحرف عن جادة الصواب أو يتنكب لأوامر الضمير الذى هو قبس من نور الله . فالمؤلف يرى أن الجرائم الكبرى

تقع تحت دعاوى الوطنية والقومية وحماية الدين أو الصالح العام . وهذه الشعارات تمثل أوثان العصر الحديث لهذا نراه يحرض الأفراد على التمرد عليها اذا تصادمت مع نواهى الضمير.

فالانصياع لهذه الدعاوى وقبولها من جانب الفرد رغبة فى منصب أو مجد شخصى يعتبر فى نظر المؤلف نوعا من الشرك بالله . فهذه الدعاوى فى نظره جميعا لا تبرر وقوع الحرب أو العدوان أو حتى قتل شخص بمفرده والقصة مليئة بالتحليلات الفلسفية والذهنية للاغراءات التى تضلل الأفراد والجماعات وتسبب نكبة البشر وهو يلخص رأيه فى المسيحية على النحو التالى :

ان الموسوية ركزت على العدل حين قالت سن بسن وعين بعين أما المسيحية فقد ركزت على الحب والتسامح « فقد لا ينفع الناس ان تهديهم تفصيلا الى الخير بل قد يكون انجح لو علمناهم الايمان والحب وكبح الشهوة وتركنا عقولهم ان تنظم أمورهم فى حدود ما لا يحرمه الضمير » .

ومن هنا تأتى دعوته الملحة لفصل الدين عن النظم الاجتماعية لأن الدين ثابت والنظم الإجتماعية متغيرة بالضرورة وهما أمران لا يجب أن يتعلق أحدهما بالآخر .

وواضح ان رؤية المؤلف للخلاص تقوم أساسا على الحرية الفردية المطلقة حتى يتسنى للضمير الفردى أن يمارس دوره

المؤثر .. لهـذا يدعو الى وقوف الأفراد فى وجه الجمـاعة اذا تعارضت دعوى الجماعة مع ضمير الفرد وهى دعوة تغرق فى المثالية وتحسن الثقة بالضمير الفردى وحده حين يتحول الفرد الى ديكتاتور يسخر الجماعة لأغراضه .

ومع ذلك تبقى دعوة حرية الضمير على هـذا النحو هدفا عظيما يستحق أن يتمرد الفرد من أجله لكن كيف يمكن هـذا الآن فى ظل النظم غير الديمقراطية حيث أصبحت الدولة تمثل جهازا بوليسيا رهيبا قادرا على كبت الأفراد والفتك فى أى لحظة بمن يتمرد . لكن هـذا التمرد فى رأى الكاتب هو الوسـيلة الوحيدة لخلاص الفرد وخلاص الجماعة من تأنيب الضمير .

انها رؤية أديب مفـكر وعالم ممن يشغلهم أمر اصـلاح العالم .. ومن أجل هذه الغاية تجول فى دروب المعرفة المختلفة بحثا عن منهج شامل لتفسير حركة الفكر وقيام الحضارات .. وكانت له اجتهاداته الخاصة فى تفسير التاريخ .

خاتمـــة

ينفرد محمد كامل حسين بصفة هامة هى أنه مفكر له منهج علمى واضح القسمات .. ومن أجل هــذا حصرت دراستى فى كتاباته التى تبلور هــذا المنهج وتبرزه فقط ، حتى أننى حذفت فصلا عن نقده للشعر واكتفيت بنشره فى مجلة « الهلال » (عدد سبتمبر ١٩٧٨) بعنوان « دراسة جديدة لشعرنا القديم » .

أما منهجه الفكرى فهو يعبر عن فلسفة أو رؤية متفائلة تشيع الأمل فى النفس وتملأ الانســان ثقة بقدراته ومواهبــه وبامكانياته على الابداع وبناء التقدم وتحقيق العدل والمساواة والحرية . وهو يشرح هــذا المنهج فى « وحدة المعرفة » قائلا :

« والاصــلاح المنهجى الذى ندعو اليه يقوم على أنه حان الوقت الذى نستطيع فيه أن نغير من وضع الهرم المقلوب فنجعل المعرفة هرما قائما على أساس الطبيعيات وهى أساس ثابت ، قائم على البرهــان والتجربة ، فيه تكون القضــايا عامة غير قابلة للاستثناء ، وفيه يكون الواقع معروفا لا يحتمل الشك ولا يتسع للآراء المتضاربة ، وفيه يكون الواقع والمعقول شــيئا واحــدا لا يقبل الخلاف ثم نقيم على هذا الأساس علوم الحياة على نسقه

وأسلوبه ، فيتحدد بذلك المذهب الحق من بين المذاهب الحيوية ثم نقيم على هـذا كله علوم الانسانيات متسقة فى نظامها مع علوم الحياة فيتبين لنا المذهب الحق من بين المذاهب الانسانية المتعددة » .

وهو يؤمن بتقدم العلم وسيادة العقل عليه بغرض توجيهه لخدمة مستقبل الانسان فهو يرى أن تاريخ الحياة العقلية خطـا صاعدا أو رقيا مستمرا ويقول فى (التحليل البيولوجى للتاريخ) أن « أثر الحياة العقلية فى التاريخ يزيد كلما امتد الزمن » .. ثم يضيف « ولمـا كانت الغرائز باقية على ما هى عليه ، وكانت الحياة الاجتماعية تعلو وتنخفض فلن يمضى وقت طويل حتى تطغى الحياة العقلية عليهما ، وسيصبح لها النصيب الأكبر فى تكييف تاريخ المستقبل ، وسيسود ذلك المستقبل أقوى آثار الحيـاة العقلية وهو المساواة » .

ذلك أنه يرى أن انتاج الأعضـاء التعويضية الآن يساعد الأفراد المعوقين على تكملة ما أصابهم من نقص كما أن الأجهزة الالكترونية الحديثة تمكن المعوقين من التعلم والتقدم فى كل مناحى الحياة .. وتحقق لهم المساواة مع الأصحاء ، وسـوف يكون من نتيجة ذلك كله سقوط امتيازات التفوق بين الأفراد اذ يقول :

« تقدم العلوم يؤدى الى محو فروق التفوق . وهو بذلك

يؤدى الى المساواة بين الناس • وفى هذه المساواة مفتاح تاريخ المستقبل • ومن آثارها ضياع الامتيازات القائمة على التفوق • وسيظل الأفراد قادرين على التفوق على غيرهم من الأفراد فى دائرة تخصصهم ، ودون أن يؤدى هذا التفوق الى امتيازات عامة قد لا تمت الى هـذا التفوق بأى سبب » •

ومع ذلك فهو يرفض كل النظم الشمولية والديكتاتورية التى تقضى على حرية الفرد وكيانه •• بدعوى سعادة المجتمع لأنه يرى أن من حق كل فرد أن يتمتع بالعـدل والحريـة •• والنظام السليم هو الذى يوائم بين مصلحـة الفرد ومصلحـة الجماعة « فالفردية الحقة هى التى تقوم على أن كل فرد يجب أن يكون سعيدا ، والاشتراكية الحقة هى التى تقوم على أن سعادة الجماعة هى سعادة كل فرد فيها » •

ومن ثم كان انحيـاز محمد كامل حسـين للديمقراطيـة الاشتراكية على أساس أنها أقدر النظم على ضمان حرية الفرد وتحقيق العدالة الاجتماعية والاقتصادية أيضا •

مراجــع البحث

اولا : مؤلفات الدكتور محمد كامل حسين :

١ ـ متنوعات الجزء الأول ١٩٥١ القاهرة ـ مطبعة مصر .

٢ ـ التحليل البيولوجى للتاريخ ١٩٥٧ القاهرة ـ المطبعة العالميــة .

٣ ـ وحدة المعرفة ١٩٥٨ القاهرة ـ مكتبة النهضة .

٤ ـ متنوعات ـ الجزء الثانى ١٩٦١ القاهرة ـ مكتبــة نهضة مصر .

٥ ـ الوادى المقدس ، ١٩٦٨ ـ القاهرة ـ دار المعارف .

٦ ـ الذكر الحكيم ، ١٩٧١ ـ القاهرة ـ مكتبة النهضــة المصريــة .

٧ ـ الشعر العربى والذوق المعاصر ، ١٩٧١ ـ مطبوعات الاذاعة والتليفزيون .

٨ ـ قرية ظالمــة ، ١٩٥٤ ـ مكتبة النهضة المصرية .

٩ ـ قصص قصــيرة :

ـ فـــراق ـ مجلة الهلال ـ فبراير ١٩٦٢ .

ـ قصة جريمة شنعاء ـ مجلة الهلال ـ مارس ١٩٦٢ .

ـ أي الطريقتين اهدى ـ مجلة الهلال ـ أبريل ١٩٦٢ .

ـ قوم لا يتطهرون ـ مجلة الهلال ـ مايو ١٩٦٢ .

ـ الطريـــد ـ مجلة القصة ـ يونيو ١٩٦٤ .

ـ مـــاء مـــدين ـ مجلة القصة ـ أغسطس ١٩٦٤ .

ـ الراهبة والعجوز ـ مجلة الاذاعة ـ ٣ يناير ١٩٧٦ .

ـ الاسخريوطى ـ مجلة الاذاعة ـ ٣١ يناير ١٩٧٦ .

ثانيـــا ـ كتابات حول محمد كامل حسين :

ـ الدكتور محمد كامل حســـين ـ دكتور ابراهيم بيومى مدكور مجلة مجمع اللغة العربية وهى الكلمة التى القاها الدكتور مدكور فى استقباله له عضوا بالمجمع .

ـ دفاع عن التاريخ ـ محمود أمين العالم ـ مجلة الرســـالة الجديدة ١٩٥٧ . اعيد نشره فى كتاب (معارك فكرية) كتاب الهلال ديسمبر ١٩٦٥ .

ـ اقتبـــاس أم توارد خواطر ـ عبـــاس محمود العقـــاد ـ الأخبار ١٤/١١/١٩٦٢ .

ـ مثل فى التواضع والخبرة والدراســـة ـ عبـــاس محمود العقاد ـ الأخبار ٢٢/١١/١٩٦٢ .

ـ اقســـم أننى ضربت كفـــا بكف ـ دكتـــور زكى نجيب محمود الأخبار ٢٦/١١/١٩٦٢ . (يدخل المعركة الي جانب العقـــاد) .

ـ تعليق العقاد على رد كامل حسين ـ عباس محمود العقاد الأخبار ١٩٦٢/١١/٢٧ .

ـ الطبيب محمد كامل حسين ـ دكتور ابراهيم بيومى مدكور ـ الهلال مارس ١٩٧٣ .

ـ وادى محمد كامل حسين المقدس ـ فتحى رضوان ـ الثقافة أبريل ١٩٧٧ .

ـ نموذج لرجل النهضة ـ دكتور حسين فوزى فى حفل الاتحاد العلمى المصرى لتخليد ذكرى كامل حسين فى ١٩٧٧/١٢/٧ .

فهرس الكتاب

رقم الايداع ٣٨٦٨ / ١٩٨٨

الترقيم الدولى ٥ ـ ١٧٩٣ ـ ٠١ ـ ٩٧٧

الهيئة المصرية العامة للكتاب

هذا الكتاب يكشف لى عن سر من أسرار البلاغة فى [illegible]
الاستشعار بعبقرية شخص ما من أول أمره ، أو بعد قليل من
لقائه ، ويقيم [illegible] بينه وبين كاتب هذه السطور كتاب
الأستاذ [illegible] عن قليل يلمع نور لعبقرية محمد كامل حسين ،
ويتناول أهم مؤلفاته بالفحص والشرح والإبانة عما فيها من فكر
عميق ، ويصوغ فى أسلوب هو أقرب إلى [illegible] فلا عجب
[illegible] ولا [illegible] [illegible] العالم الناصح
[illegible]

(د. شوقى ضيف)